
روايات مصرية للجيب
المكتب 17
إدارة المهام الخاصة
20
عملية مواجهة

باختصــــار

لم تعد الأمور كما عهدناها على الإطلاق ..

بدأت الحقائق المريعة تتكشف واحدة تلو الأخرى ، ومازالت قطع الدومينو تتساقط على التوالى بعد سقوط أول قطعة فى الصف الطويل ، فى (العملية رقم ١٧) ..

محاولة الاختصار ستلتهم معها الكثير من التفاصيل التى قد تكون مهمة ، ومع هذا فلا مفر منها بالنسبة للبادئين من هذه النقطة ، أما الراغبين فى الاستزادة فالأجزاء السابقة مازالت معروضة فوق الرفوف ، ننصحهم بالعودة إليها ..

باختصار ، نحن الآن فى منطقة من أرقى ضواحى (باريس) ، بالتحديد داخل قصر واسع من طابقين ، حيث يواجه (عمر زهران) بطلنا الشاب الذى يطارد ماضيه ، وتطارده مرحلة أخرى فى رحلة اكتشاف مصيره المؤلم ..

الصورة قاتمة ، فالمكتب (١٧) ، الهيئة الأمنية الرفيعة التى ينتمى إليها فى (القاهرة) ، لم يكن إلا واجهة

•

شرعية لمشروع حكومى سرى أنشئ بالتعاون مع جهات سرية أخرى فى (فرنسا) و(الولايات المتحدة الأمريكية) ، بهدف إخراج جيل جديد أكثر كفاءة من رجال الأمن ، عن طريق زرع شرائح إلكترونية فى أدمغتهم ، تنمو معهم من الطفولة حتى البلوغ ..

(عمر زهران) كان أحد هؤلاء الذين مروا بالتجربة المريعة فى طفولته ، دون أن يعرف عن هذا شيئًا ، لكن غريمته القديمة الفرنسية المقعدة (مادلين تشايمر) ، هى التى قادته نحو اكتشاف هذه الحقيقة ، فقد كان والدها (دوبويه تشايمر) هو المسئول التقنى عن المشروع السرى المشترك ، من خلال شركته (ماربل) للتقنيات التى تديرها هى حالا ، وهى مؤمنة أن والدها قد قتل فى حادث سيارة دبره المصريون نتيجة رغبتهم فى دفن السر لاحقًا ، كإيمانها أيضًا بأنها قد فقدت ساقيها فى حادث سيارة مماثل ، نتيجة نفس الرغبة ؛ لذا فهى تضمر الانتقام ، وتنفذه ..

(عمر) الآن متهم أمام العالم بالشروع فى قتل مستشار الرئيس الأمريكى (جيمس بامفورد) ، عن طريق شريط

فيديو أذاعته شبكة إخبارية دولية له وهو يهرب من السفارة الأمريكية فى (مدريد)، بعد أن طلبت منه (مادلين) أن يفعل ومنحته السلاح ودعوة الحفل، غير أن المذيعة الشهيرة (كارلا روبرتس) التى أذاعت الدليل المصور قد فصلت من الشبكة الإخبارية التى تعمل بها، وتولى القائمون على الشبكة إعدام كل نسخة من الشريط دون سبب مفهوم .. بعدها، قادها شخص يدعى (سانتياجو) لكى تقابل شخصًا غامضًا يسمى نفسه (رجل الليل)، يبدو أن له اليد الطولى فى كل ما يحدث ..

(دينا واصف) شريكة (عمر) تمر بأوقات عصيبة هى الأخرى، فبعد تجربة مسح الذاكرة المؤقتة فى (العملية رقم ١٧)، يتم خطفها من (المكتب ١٧) فى (القاهرة) وترحيلها بخدعة احترافية إلى (باريس)، وهناك تخضع لجراحة استخراج لشريحة إلكترونية من رأسها، باعتبارها واحدة من ضحايا المشروع السرى القديم ..

العميد (منصور حرب)، صقر الإدارة العجوز، يطير إلى (مدريد) ويقابل (مادلين)، وهى المقابلة التى

يستمع فيها (عمر) إلى الحقيقة المبهمة، ويقرر بعدها العميد (حرب) أن يلجأ للعنف، فيستأجر قاتلا إسبانيًّا محترفًا للتخلص من (مادلين)، غير أن المهمة تفشل فشلاً ذريعًا ويلقى خلالها القاتل المحترف حتفه، و(منصور حرب) يطير إلى (باريس) إثر رسالة درامية أخرى من (رجل الليل)، ليستدعى (منصور حرب) أحد رجال الإدارة الغامضين (روب)، ويطلب منه أن يحضر له (عمر زهران) حيًّا .. أو ميتا !

بقى (روى باور) الإمبراطور الاقتصادى العالمى مازال محتجزًا فى (القاهرة)، والذى استعاد ذاكرته، ويحاول التفاوض على البوح بالمعلومات الغزيرة التى يمتلكها عن عالم الجريمة السرية العالمية المنظمة التى يمتلكها بحكم خبرته، نظير إجرائه مكالمة هاتفية واحدة فقط !

هكذا تعقدت الخيوط وتشابكت مع انكشاف الكثير من الحقائق، ويخوض (عمر زهران) مأساته الشخصية والمهنية، مع الدكتور الأمريكى (رالف آندرسون) المؤمن حتى الثمالة بنظرية المؤامرة الكونية والحكم السرى الخفى للعالم، والجراح اليابانى (ميشيما) الذى اكتشف وجود الشريحة الإلكترونية فى رأسه بالأشعة السينية ..

يرسل لهم (رجل الليل) إلى (مدريد) من يقودهم برًّا إليه فى (باريس)، وهكذا يجد (عمر) ورفيقيه أنفسهم فى القصر المذكور، ويواجه (عمر) المفاجأة القاسية الجديدة، عندما يجد نفسه أمام نسخة مطابقة منه، بنفس الملامح والهيئة والتكوين، ترحب به بالفرنسية، أمام عيون رفيقيه الجاحظة ذهولاً ..

وهكذا تبدأ مرحلة جديدة وأخيرة، من اكتشاف المزيد من الحقائق المخيفة ..

★ ★ ★

١ـ الأقوى ..

« من يتحكم فى الماضى يتحكم فى المستقبل، ومن يتحكم فى الحاضر .. يتحكم فى الماضى ! »

جورج أورويل

★ ★ ★

انفتح باب غرفة اللقاء الآمنة فى صخب معدنى، قبل أن ينغلق خلف اللواء (عفت حفنى)، مدير إدارة المهام الخاصة، المكتب (١٧)، مصدرًا نفس الصخب ..

ثم ران السكون ..

رفع إليه (روى باور) عنقه السمين ووجهه المكور الطافح ببسمة ماكرة كريهة، وقال :

ـ توصلتَ إلى قرار إذن أيها السيد ..

تحاشى (عفت) النظر إلى عينيه مباشرة، وقال فى نبرة عميقة متمعنًا فى القيود الفضية حول معصميه، التى تتوهج تحت ضوء النيون الأبيض :

- سنجعلك تجرى المكالمة التى تريدها ..

اتسعت بسمة (باور) وفاح منها المزيد والمزيد من الخبث الكريه ، إذ يغمغم :

- أخشى أن أقول إننى توقعت هذا ، حتى لا تظننى مدعيًا .. لكنى توقعت هذا بالفعل !

قال (عفت) ، موقنًا بأن فرصةِ التراجع قد أصبحت ضئيلة جدًا :

- أمامك ثلاث دقائق فقط ، لن نسمح لك بأكثر من هذا ..

هتف (باور) عابثًا :

- ما هذا البخل ؟! كنت أقضى الساعات أتحدث فى الهاتف دون أن أدفع شيئًا ، فلى حصة الأسد من أسهم أكبر شركة اتصالات فى العالم !

قال (عفت) وهو يمنى نفسه بأن يرفض (باور) :

- العرض واضح ، خذه أو اتركه ..

- أمزح يا رجل ، إن دقيقة واحدة سوف تكفى وتزيد ..

قالها (باور) ورفع معصميه المقيدين فى مواجهة عينى (عفت) ، الذى أدرك أن فرصة التراجع قد أصبحت معدومة ، لكنه عاد يطمئن نفسه بأنه ليس لديه ما يخسره ، وأن الوضع سوف يبقى تحت السيطرة الكاملة فى كل الأحوال ..

فرقع بإصبعيه لأحد الحارسين الواقفين خلفه عند باب الغرفة المعدنى ، فتقدم الحارس وأولج بطاقة صغيرة فى القيد الفضى ، لينفك أخيرًا عن معصمى (باور) ..

أشرق وجه الأخير ، وأخذ يدير معصميه فى الهواء بنشوة مبالغ فيها ، قبل أن ينظر إلى اللواء (حفنى) متسائلاً :

- والآن .. أين سأجرى المكالمة ؟!

أشار (عفت) إلى المنضدة الخشبية الوطيئة فى منتصف الحجرة أمام (باور) ، وقال :

- هنا ، لن تبرح هذه الغرفة ..

لوح (باور) بكفيه :

ـ أين الهاتف إذن ؟!

مد (عفت حفنى) يده فى جيب سترته ، وأخرجها بهاتف محمول متوسط الحجم ، ناوله إلى (باور) قائلا :

ـ هاك ..

نظر (باور) إلى الهاتف للحظة ، قبل أن يقول :

ـ يصلح للقيام بمكالمة دولية .. أليس كذلك ؟!

ـ بلى ..

تناوله (باور) ، وفتحه لتضىء الشاشة والأزرار ، ثم إنه نظر نحو (عفت) قائلاً :

ـ أحتاج للتحدث على انفراد لو أمكن ..

لم يمنع (عفت) نفسه من القول باستخفاف :

ـ وحدك ؟! حقًّا ؟!

هز (باور) كتفيه :

ـ أعلم أنكم سوف تستمعون إلى كل تفاصيل المكالمة كما أخبرتك ، لكنى ما زلت أخجل من التحدث أمام الغرباء !

عقد (عفت) حاجبيه وهو يحاول استكناه إن كان ما يقوله الرجل جدًّا أم هزلاً ، وفى النهاية نفض الأمر برمته عن كاهليه قائلاً فى لا مبالاة :

ـ لا بأس ، ولكن لا تنس .. ثلاث دقائق فحسب ..

هز (باور) رأسه فى تفهم ، وبمجرد أن انفتح الباب المعدنى الصاخب وانغلق خلف (عفت) ، أخذ ينظر فى أزرار الهاتف ، وشرع فى ضغطها على الفور ، بلهفة الباحث عن طوق النجاة وسط أمواج البحر المتلاطمة ..

★ ★ ★

فى ممر الإدارة الواصل ما بين غرفة اللقاء وغرفة المدير ، كان (عفت حفنى) يخف السير فى عصبية ، ومن ورائه (نادر الشريف) يهتف فى قلق :

ـ أخشى أن نكون قد منحناه ما يبحث عنه يا سيادة اللواء ..

قال (عفت) مشيحًا بيده ، كأنه يطمئن نفسه لا تلميذه :

ـ ليس لدينا ما نخسره ، فهو تحت سيطرتنا الكاملة يا فتى ..

ـ الاحتياط واجب يا سيدى .. إنها خطوة لا نعرف ما قد ينجم عنها أبدًا ..

توقف (عفت) أمام باب غرفة مكتبه الموصد ، وقال ممسكًا بكتف (نادر) :

ـ ما حدث قد حدث .. لقد قبلتُ بالمخاطرة وسيجرى الرجل المكالمة وسنعرف فحواها كاملة ، والاحتمالان هنا متساويان : إما أن يدلنا على خيط نسير خلفه ، أو لا يحدث شىء البتة ، وتكون نيته مجرد العبث بنا وتضييع بعض الوقت .. يجدر بك الآن أن تكون حيث تعرف ، لكى ترفع لى بعدها تقريرًا وافيًا بكل التفاصيل ..

هز (نادر) كتفيه ، قائلاً :

ـ نعم يا سيدى ، سأكون هناك وسأوافيك بما سيحدث تباعًا ..

وانطلق إلى الجهة التى أتيا منها ، فى حين زفر (عفت) بحرارة ، قبل أن يفتح الباب ، ويدخل ؛ ليجدها ما زالت تنتظره ..

ـ آسف يا سيدة (عزة) ، تأخرت عليكِ قليلاً ، لكن بعض الأمور الغريبة تحدث هنا ..

قالها للمرأة الشيباء المتدثرة بملابسها الشتوية الثقيلة ، الناظرة باتجاه التلفاز القريب ، معطية له ظهرها ، فألقى بجسده على المقعد الوثير خلف مكتبه ، وحدق بدوره فى الشاشة التى ارتسمت فوقها ملامح رئيس أقوى دولة فى العالم ، ومن خلفه العلم المميز بالشرائط والنجوم ، موجهًا خطابه نحو الأمة الأمريكية ، والعالم ..

ـ لن يربح الإرهاب الأسود حربه ضدنا أبدًا ..

نقلت السيدة (عزة) بصرها من الشاشة نحوه ، لتظهر عيناها الحمراوان اللتان تنهمر منهما الدموع ، فارتفع حاجبا (عفت) فى شفقة ، وماتت الكلمات على شفتيه ..

ـ أريد فقط أن أعرف إن كان بخير يا سيد (عفت) .. هذا كل ما أريد أن أعرفه !

قالتها المرأة وهى تنوح ، وجسدها يهتز بالنشيج ، فغمغم (عفت) سائلاً :

ـ تعنين (عمر) ؟!

هزت رأسها أن نعم ، فأجابها :

ـ لا توجد معلومات كافية ، لكنى متفائل بشأن الفتى .. إن عدم وجود أخبار لهو خبر جيد فى ذاته كما يقول الغربيون ، والمثل ينطبق على هذه الظروف المحيطة بنا بالذات ..

بكت فى حرقة ، حركت فى أعماقه مزيدًا من الشفقة ، وهو يسألها :

ـ اسمحى لى أن أندهش ، ماذا كنت ستصنعين بنفسك لو كان (عمر) ابنك بالفعل ؟!

حاولت أن تتمالك نفسها ، وهى تقول :

ـ أخشى أن تظن كلماتى ليست سوى ميلودراما مكررة ، لكنه شعورى الحقيقى الذى لم يزايلنى من اللحظة الأولى التى رأيته فيها .. شعورى الحقيقى بأنه ابنى .. (عمر) ابنى .. منذ أحضره لى (منصور) بعد انفصالنا ، وأخبرنى بموت أمه أثناء ولادته ، ومقتل أبيه فى (بيروت) .. إلى اللحظة التى أخبرنى فيها بأن قلبه قد خفق بالحب ، وبأنه يريد مصارحة حبيبته بالزواج .. كنت موقنة أن السماء تعوض كل منا بالآخر ، لكن ...

عادت تنخرط فى النحيب ، وعاد (عفت) يهز رأسه فى تفهم قائلاً :

ـ ما بنى على خطأ فهو خطأ .. كان لابد لهذه القصة المزيفة أن تنتهى يومًا ، ولعل ما يحدث هو أخف الكوارث وطرًا ..

السكون ، إلا من صوت رئيس أقوى دولة فى العالم ..

ـ إن قلوب الأمريكيين مع مستشارنا (جيمس بامفورد) فى محنته بـ (مدريد) ، تطمئنه أننا سنضرب بيد حديدية كل من تسول له نفسه الاعتداء على أمن أمتنا وسلامتها ..

غمغم (عفت) :

ـ أجل ، هذا منطق الأقوى !

وفى اللحظة التالية ، رن هاتف مكتبه ، الخط الساخن :

ـ آلو ..

ـ سيادة اللواء ..

ـ (نادر) ، ما بك ؟! هل كنت تركض فى ماراثون ؟!

واصل (نادر) لهاثه عبر السماعة :

ـ كلا يا سيدى ، لكنك لن تصدق ما حدث .. أنا نفسى مازلت عاجزًا عن التصديق ..

حاول (عفت) أن يتجاوز بالمرح الزائف ، ما اعتمل فى صدره من توتر :

ـ هل يقف شبح الموت إلى جوارك وأنت تحدثنى الآن ؟! هذا شىء لن أصدقه بسهولة !

ـ كلا ، لقد استمعت إلى مكالمة (روى باور) بنفسى يا سيدى ..

ـ أين التقرير إذن ؟!

ـ يكتبونه الآن ، لكن الأمر قد لا يحتمل التأجيل .. كان يجب أن أتصل بك لأخبرك بمنتهى السرعة ..

ـ هل اتصل (روى باور) بشبح الموت عبر الهاتف المحمول أم ماذا ؟!

ـ شىء من هذا القبيل ..

ـ لِمَ لا تلقى بكل ما فى جعبتك إذن ، فقد شوقتنى حقًّا ؟

ازدرد (نادر) لعابة بصوت مسموع ، قبل أن يقول :

ـ لقد اتصل (روى باور) بالبيت الأبيض نفسه ياسيدى !

صرخ (عفت) كمن لدغه عقرب سام :

ـ ماذا ؟!

ـ وبالرقم الخاص بمكتب رئيس (الولايات المتحدة الأمريكية) ، شخصيًا !

كان لهاث اللواء (عفت حفنى) ينافس لهاث (نادر) وهو يرفع عينيه إلى شاشة التلفاز مجددًا ، حيث كان رئيس (الولايات المتحدة الأمريكية) شخصيًا ، يختتم خطابه بقوله :

ـ أيها الأمريكيون ، كونوا يدًا واحدة ، وقولوا معى .. ليحفظ الله (أمريكا) ..

★ ★ ★

ـ أيها الأمريكيون ، كونوا يدًا واحدة ، وقولوا معى .. ليحفظ الله (أمريكا) ..

ـ قطع ..

دوى هتاف المخرج ، فى الركن الصغير الذى تحتله منصة خشبية تحت أضواء التصوير الساطعة ، على خلفية تمثل العلم الأمريكى الكبير بالشرائط والنجوم ..

وعلى الشاشة التى تعرض ما تنقله الكاميرا فى الجوار ، اختفت صورة الرئيس الأمريكى ليحل محلها إعلان قومى على أنغام حماسية ، فى حين هبط الرئيس الحقيقى نفسه من فوق المنصة ، ليتحلق من حوله المستشارون والموظفون ، وهو يخرج من الغرفة المخصصة لإلقاء الخطاب ، سائرًا فى الممرات التى سوف تقوده إلى مكتبه البيضاوى ، حيث يحكم العالم ..

اقتربت إحدى الموظفات الشقراوات من الرئيس ، لتهتف بعد أن فرغ موظف من قول شىء ما يتعلق بموعد قادم مع أحد السفراء :

ـ وردت إلينا مكالمة مهمة منذ أقل من دقيقتين يا سيادة الرئيس ..

سألها وهو سائر فى طريقه :

ـ ممن يا (جينا) ؟!

قالت الموظفة وهى تنظر فى الأوراق أمامها ، وتزيح خصلة نافرة من شعرها إلى خلف أذنها :

ـ اسمى (باربرا) يا سيدى ..

ـ مهما يكون ، لا يهم ..

ـ المتصل شخص يدعى (روى باور) ..

سألها فى سرعة :

ـ الطبيب أم رجل الأعمال ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ رجل الأعمال .. والوضع الذى يخصه حرج حقًا ..

توقف الرئيس أمام جناح مكتبه البيضاوى ، وقال :

ـ (جينا) ، أحد مستشارىّ المقربين مصاب بطلق نارى ويتم علاجه عند الطرف الآخر من المحيط .. ألا ترين أن الوضع هنا حرج بما فيه الكفاية ؟!

قالت الشقراء :

ـ اسمى (باربرا) يا سيد ، والسيد (باور) قد اتصل من (القاهرة) وأفاد بأنه محتجز هناك ..

عقد الرئيس حاجبيه وتساءل :

ـ محتجز ؟!

ـ لم يخبرنا بالكثير لأن الاتصال انقطع بعد أقل من دقيقة ، لكنه ذكر شيئًا عن جهة تحتجزه تدعى ...

ونظرت فى أوراقها لتتذكر قبل أن تقول :

ـ المكتب (١٧) !

ضيق الرئيس ما بين حاجبيه أكثر ، وهو يتساءل :

ـ أهذه منظمة إرهابية أخرى أم ماذا ؟!

كادت الموظفة ترد ، لكنه لوح بسبابته مردفًا :

ـ اتصلى بأبى على الخط الساخن ، سأجعله يرسل لى خبيرًا فى أمور الشرق الأوسط حتى أفهم منه كل شىء .. OK ؟!

هزت الموظفة رأسها ، وهى تتابع الرئيس الذى دخل إلى مكتبه البيضاوى ليحكم العالم ، باعتباره الرئيس الأقوى ..

للدولة الأقوى ..

★ ★ ★

صوت امرأة تتحدث اللكنة الأمريكية بلسانها المحلى :

ـ السيد (روى باور) ؟!

صوت (روى باور) :

ـ أجل ، رجل الأعمال المعروف ، إننى محتجز هنا منذ أيام طويلة وأحتاج إلى مساعدتكم ..

صوت المرأة :

ـ أين ؟!

صوت (باور) :

ـ فى (القاهرة) .. المكتب (١٧) ..

ـ سأحاول أن أصلك بمن يمكن أن ...

صوت انقطاع الاتصال !

تساءل اللواء (عفت حفنى) وهو يحدق فى شاشة الكمبيوتر التى ارتسمت عليها الموجات الصوتية للتسجيل النقى :

ـ هل انقطع الاتصال تلقائيًا ؟!

أجابه (نادر) المتوتر إلى جواره حتى التداعى :

ـ كلا .. لقد أمرت أنا بقطعه ، خشية أن تتطور الأمور أكثر إلى ما لا يحمد عقباه ..

حدجه (عفت) بنظرة نارية ، جعلته يتساءل فى رعب :

ـ هل أخطأت يا سيادة اللواء ؟!

فوجئ به يربت على كتفه فى حنو وهو يقول :

ـ كلا ، لم تخطئ .. وإنما فعلت عين الصواب يا فتى !

زفر (نادر) فى راحة وهو يمسح من فوق جبهته عرقًا وهميًا ، بينما غمغم (عفت) متابعًا ، وهو يعاود النظر فى الموجات الصوتية المرتسمة على شاشة الكمبيوتر :

ـ أتعشم ألا أكون أنا من ارتكب خطأ فادحًا ..

★ ★ ★

فى الساعة الثانية ظهرًا وبضع دقائق بتوقيت (واشنطن) ، هبطت المروحية فوق سطح البيت الأبيض ، ليخرج منها بعض رجال الخدمة السرية ، ومن خلفهم كهل أصلع الرأس يرتدى نظارة طبية سميكة وبذلة

نصف مهندمة ، ويحمل حقيبة من الجلد الأسود المهترئ ..

عرف الرجل طريقه إلى ممرات البيت الأبيض فى الدقائق التالية ، حتى بلغ المكتب البيضاوى ، وقدمته (باربرا) الشقراء بقولها :

ـ البروفيسور (مارتن بروكوفيتش) ، خبير الشرق الأوسط يا سيادة الرئيس ..

أشار له الرئيس أن يجلس ، وقال :

ـ هناك من سيشرح لنا بعض الأمور إذن ..

فى الدقائق التالية شرح البروفيسور (بروكوفيتش) بنبرة صوته الخنفاء كل ما يعرفه من معلومات أكاديمية وسرية حول (روى باور) والمكتب (١٧) فى ثقة هادئة ، خاصة ما يتعلق بكون هذا الأخير واجهة لمشروع سرى قديم خاص بغسيل الأدمغة والتحكم فى العقول ..

سأله الرئيس :

ـ على طريقة فيلم The Manchurian Candidate ؟!

أجاب :

ـ نوعًا ما يا سيادة الرئيس ..

وجدها الرئيس فرصة مناسبة للمزاح :

ـ أتعشم ألا يكون فى رأسى شريحة إلكترونية أنا الآخر إذن !

لم تضحك دعابته أحدًا ، وألقى البروفيسور بآخر ما لديه ، قبل أن يسأل الرئيس :

ـ كل هذا رائع ، لكن .. ما الذى يجعل جهة مثل المكتب (١٧) هذه تحتجز شخصًا مثل (باور) ؟!

أجابه (بروكوفيتش) :

ـ سيستفيدون من وجوده بين أيديهم حتمًا ، فالرجل خزينة أسرار متنقلة .. إضافة إلى أنه مدان من جهتهم فى عدد من الجرائم بالفعل ..

سأل الرئيس :

ـ وهل يوجد ما يستدعى تدخلنا من أجل إنقاذه ؟!

قال البروفيسور :

ـ بالتأكيد ، حفاظًا على ما يملكه من أسرارنا .. إن الرجل وسيط فى مشاريع حكومية سرية بيننا وبين جهات أخرى منذ اشتعال أوار الحرب الباردة حتى دخولنا حرب (العراق) ، وفى إنقاذه إنقاذ حتمى لنا بالتالى ..

تدخلت (باربرا) بقولها ، مشيرة إلى أوراق متراصة داخل ملف تحمله :

ـ لكن الـ CIA لها رأى مختلف قليلاً ، فهم يرون التريث قليلاً لأن (روى باور) ظهر بنفسه منذ .. قبل حادث إصابة السيد (بامفورد) فى إحدى شركاته بـ (مدريد) ، مما يعنى أن الأمر قد ينطوى على خدعة ما لم تتضح أبعادها بعد ..

قال (بروكوفيتش) :

ـ ألعاب المخابرات السرية هذه سوف نتركها لهم ، لكن المهم .. أن ننقذ رجلنا قبل فوات الأوان ، هذا رأيى بمنتهى التواضع يا سيدى الرئيس ..

قال الرئيس عاقدًا حاجبيه :

ـ أبى أيضًا يقول إن المخابرات سوف تتولى الأمور من جهتها دون أن تطلعنا على شىء ، وقد كلفتهم بصفة مباشرة أن يعودوا لى بالسيد (بامفورد) على أسرع وجه حتى نستكمل علاجه هنا ، وبالنسبة لـ (باور) فسوف ننقذه بطريقة دبلوماسية خالية من العنف حتى لا نخسر أرضنا المصرية فى الشرق الأوسط ، فقط يجب أن نعرف ما نملكه من أدوات ضغط تجاه المصريين أولاً ..

هز (بروكوفيتش) كتفيه ، وقال :

ـ الكثير يا سيدى .. هناك بند المعونة الأمريكية الواسع من القمح إلى الصحة إلى التعليم ، وهناك بند الديون العسكرية ، وهناك بند الذعر الإسرائيلى الزائف الذى يمكن أن نثيره فى أى لحظة ، وهناك لو تفاقمت الأمور ورقة لم نلعب بها حتى الآن ، لكنها مضمونة التأثير سواء معهم أو مع غيرهم ..

ضيق الرئيس الأمريكى عينيه وتساءل :

ـ أى ورقة تقصد ؟!

مد البروفيسور (بروكوفيتش) يده إلى حقيبته الجلدية ، وأخرج منها ملفًا ، ثم نهض ووضعه على مكتب الرئيس ، قائلاً :

ـ هذا الملف السحرى ، يا سيادة الرئيس ..

نظر الرئيس إلى الملف ، وابتسم فى تفهم ..

الكتاب يقرأ من عنوانه ، وعنوان الملف كان أوضح من أن يفسر ..

عنوانه : « ملف (مصر) النووى ! »

★ ★ ★

٢ـ الرجــل ..

« حيوانات التجارب التى زُرعت أقطاب كهربية فى أمخاخها ، استطعنا توجيهها عن طريق تحفيز ردود أفعالها المختلفة ، تمامًا كما لو أنها ألعاب إلكترونية تحت سيطرة الإنسان الكاملة .. »

د. جوزيه ويجالدو

كلية الطب ـ جامعة (ييل)

★ ★ ★

أسند العميد (منصـور حـرب) ظهره على قائم السرير الخشبى ، بعد أن خلع معطفه الشتوى الثقيل أخيرًا ، واطمأن إلى درجة حرارة جهاز التدفئة داخل الشقة الباريسية المتواضعة ..

تنهد فى عمق ، قبل أن ينظر فى ساعة معصمه ، فوجدها تشير إلى تباشير الصباح الأوروبى البارد ، وانتبه إلى أنه لم ينم منذ وقت طويل ..

أين يمكن أن يجد مساحة للنوم وسط كل ما يحدث ؟!

أمسك بجهاز التحكم عن بعد ، وأخذ يجول فى قنوات التلفاز الصغير ، قبل أن يعقد حاجبيه مغمغمًا فى استغراب :

ـ لقد توقفوا عن بث شريط هروب (عمر) من السفارة الإسبانية على الـ (فى بى سى نيوز) والمحطات الأخرى .. لكن ، لماذا ؟!

ضغط الأزرار باحثًا عن المحطات الناطقة بالإسبانية ، وعندما تنقل بينها انعقد حاجباه أكثر :

ـ لا توجد أخبار عن (مادلين) و(ميجيل) أيضًا .. ترى هل أخفق اللعين فى التخلص منها ؟! أم لعله قرر أن يخدعنى ويأخذ النقود بلا مقابل ؟!

كان هناك صوت ضئيل فى أعماقه ينبهه إلى خطورة ما فعله وما يفعله ، لكنه تجاهله تمامًا ، وقمعه بكل قوة قبل أن يعلو أكثر ، فله مبرراته القوية التى لا مكان فيها حاليًا لأخلاقيات الفرسان ..

فكر فى النزول وابتياع بعض الصحف الإسبانية ، لكنه لم يجد فى نفسه القوة الكافية ، إضافة إلى أن الخبر ربما لم يكن قد لحق بالطبعات الصباحية بعد ، ناهيك عن كون الحادث قد وقع أصلاً ..

كاد النعاس يداهمه بعد ليلة أمس الليلاء ، غير أن ارتفاع صوت جهاز الاتصال الموصل بالكمبيوتر النقال المفتوح قد أطاره ، وسارعت أصابع العميد (حرب) تضرب بعض الأزرار استجابة للرنة المميزة الخاصة بالإدارة ، حتى ارتسمت على الشاشة صورة رقمية للواء (عفت حفنى) ، وارتفع صوته الرفيع قائلا :

ـ أين أنت يا (منصور) ؟!

قال (منصور) وهو يعدل من وضع الكاميرا الرقمية التى تنقل صورته الرقمية المشابهة إلى (القاهرة) عبر قناة اتصال عريضة الحزمة مؤمّنة جيدًا :

ـ كما تعلم يا سيادة اللواء قطعًا ، إنكم تحدثوننى على تردد الاتصال بـ (باريس) !

قال (عفت) دون أن يلوح انفعال ما على قسماته الجامدة :

ـ أعنى ما الذى تفعله عندك ؟! ألم يكن من المفترض أن تحاول اللحاق بتلميذك فى (مدريد) ؟! ما الذى دفعك إلى ركوب طائرة (باريس) الليلية ؟!

قال (منصور) فى جمود مماثل :

ـ رسالة أخرى مقتضبة من (رجل الليل) ..

ـ ألم يتضح أى شىء بشأن هويته بعد ؟!

ـ بلى ، ليس بعد ..

ـ أتعتقد أنه (رجل الليل) الذى نعرفه ؟!

ـ ربما نعم ، وربما لا ..

ـ وتلميذك ؟!

ـ المؤشرات المبدئية تقول إنه هو الآخر هنا ، فى (باريس) !

ـ المؤشرات أم محض شعور شخصى ؟!

ـ الاثنان معًا يا سيادة اللواء !

صمت (عفت) هنيهة قبل أن يقول وهو ينظر إلى ملامح الصقر العجوز الذى أكله الإرهاق :

ـ وكيف تنوى العثور عليه وأنت على هذا الحال من الإعياء القاتل ؟! إنك تبدو كشىء كريه الرائحة كما يقول الأمريكان !

ـ كلفتُ شخصًا بمهمة تعقبه والإتيان بـه ، أعتقد أن فى إمكانه العثور عليه بسرعة وكفاءة ..

ـ (روب) ؟!

هز (منصور) رأسه أن نعـم ، فعاد (عفت) يسـأله والاستهجان يزحف فوق أحباله الصوتية :

ـ هل لديك أدنى فكرة عما نعانيه هنا يا سيادة العميد مع السجين (روى باور) ؟! هل تعلم إلى أى مدىً نكاد نفقد السيطرة على كل شىء ؟!

قال (منصور) بلهجة مغايرة عما اعتاده منه (عفت) :

ـ لكل منا أولوياته يا سيدى ، وأولويتى هـى العثـور على (عمر) مهما كلفنى ذلك ..

ـ ما هذه اللهجة يا (منصور) ؟!

ـ أعتقد أن فى وسعكم ، مجابهة أى مشكلات داخلية فى الإدارة بدونى ..

ضيق (عفت) عينيه ، وقال :

ـ ماذا لو طلبت منك إذن أن تعود وتترك كل شىء عندك ؟!

ـ سأرفض يا سيادة اللواء !

ـ ماذا لو أمرتك ؟!

ـ سأستقيل ..

ران بينهما صمت ، قطعه (منصور) عندما أردف :

ـ وسأواصل السعىَ نحو هدفى الواضح والمحدد بعدها ..

غمغم (عفت) وهو يومئ برأسه فى قنوط :

ـ كما توقعت إذن ، هذه النهاية الحتمية يا (منصور) .. الانهيار من الداخل !

قال (منصور) وهو يمد يده نحو شاشة الكمبيوتر :

ـ أعتذر منك يا سيدى ، الاتصال انتهى ..

وأغلق الشاشة على الفور ..

تمدد بعدها فوق السرير بـلا حـراك ، مسددًا بصـره نحو السقف ، وقد أيقظـت كلمـات (عفـت) عن (رجـل الليل) القديم ، ذكريات بعيدة فى أعماقه ..

ذكريات ارتسمت أمام عينيه بالصوت والصورة علـى الصفحة السوداء ، فور أن أغلقها ..

★ ★ ★

النصف الثانى من عقد السبعينيات ، (باريس) ..

(منصور حرب) و(فهمى زهران) يخترقان الجموع الغارقة فى الرقص والتعاطى والعربدة داخل صالة (الديسكو) التى تنعكس فيها الأضواء الملونة فى بحر عميق من الظلمات والصخب ..

يجلسان على مقعدينِ عاليين عند حافة منضدة (البار) ، ولا يطلبان شيئا ..

يتبادلان النظر ، والصمت ، والترقب ..

يقترب منهما النادل سائلاً بالفرنسية :

ـ السيدان ؟!

يقول (فهمى زهران) ناظرًا إليه مباشرة :

ـ هل تحب الاستماع إلى (جون ترافولتا) ؟!

يجيبه النادل :

ـ ليس عندما يغنى !

يقول (فهمى) :

ـ انتظر حتى يمثل فى السينما إذن !

مال النادل نحوه وهمس :

ـ المرآب الخلفى ، الباب هناك ..

وأشار بطرف خفى إلى جهة خلفية ، فانتفض (فهمى) ومن ورائه (منصور) ليخفا السير نحوها ، ثم عبرا الباب الخشبى المتهالك إلى ساحة المرآب تحت سماء الليل المقمرة ..

نظر (فهمى) يمنة ويسرة سائلاً فى انفعال :

ـ أين ذلك الـ ... ؟!

قاطعه (منصور) فى رباطة جأش مشيرًا بسبابته إلى جهة قريبة :

ـ هاهو ذا ..

نظر (فهمى) إلى حيث يشير ، ورأى الشاحنة الكبيرة الواقفة هناك .. فى كنف الظلام ، وعلى جانبها كتب بالفرنسية بخط كبير واضح : (رجل الليل أكثر لعبة أطفال مبيعًا فى العالم) ، وبجوارها رسم كارتونى لبطل خارق بوجه طفل وملابس سوداء !

دق وقع حذاء (فهمى) على الأرض سريعًا رتيبًا وهو يقترب من السيارة ، ومن خلفه (منصور) يتبعه فى بطء نسبى ، وعندما بلغ الأخير السيارة كان الأول قد ألقى بنظرة على كابينة القيادة فلم يجد فيها أحدًا ..

ـ اللعنة ، علام كل هذا التعقيد ؟!

هتف بها (فهمى) ساخطًا ، فقال (منصور) واضعًا يديه المثلجتين فى جيب سترته :

ـ حفاظًا على أكبر قدر من السرية !

استدار (فهمى) نحو الصندوق الخلفى الكبير الموصد للسيارة ، ودقه قبضته فى عصبية ، لينفتح بعدها بهنيهة خاطفة ، وليهبط من الصندوق رجلان فى ضخامة العمالقة ..

قال (فهمى) دون أن يثير أى من الثورين خوفه :

ـ نريد (رجل الليل) إن كان لمثل هذا الشخص وجود ..

سأله أحدهما :

ـ ومن تكونان ؟!

هتف فيه (فهمى) بضيق عارم :

ـ وما شأنك أنت ؟!

ـ مرحبًا بالضيفان ..

رفع (فهمى) و(منصور) بصرهما نحو مصدر الترحيب عند حافة الصندوق المفتوحة ، وشاهداه ..

رجل نحيل ، يرتدى ملابس شتوية ثقيلة وأنيقة ، وبلا وجه !

وجهه كان مختفيا خلف قناع لشخصية (رجل الليل) ، نفس وجه الطفل الكارتونى المرسوم على جانب الشاحنة !!

ـ عذرًا ، فالحارسان الخاصان بى لا يتمتعان باللياقة فى مقابلة الضيوف الأعزاء ..

سأله (فهمى) دون أن يزايله الضيق ، فى الحقيقة أنه تعاظم :

ـ أنت (رجل الليل) المزعوم ؟!

ـ ماذا ترى ؟!

قال (منصور) أخيرًا :

ـ دعنا لا نضيع مزيدًا من الوقت إذن ، ولننه كل شيء قبل أن نلفت إلينا الأنظار ..

نظر نحوه القناع الطفولى ، وتصاعد من خلفه الصوت :

ـ ليكن ، كما تحب يا سيد (منصور) .. اتبعانى إلى الداخل من فضلكما !

انغلق مصراعا الصندوق الكبير عليهم جميعًا ، وفى الداخل ، كانت الصناديق الكرتونية تملأ الأنحاء ، والضوء الشحيح كان يصدر من مصباح صغير مثبت فى منتصف السقف المعدنى ، و(رجل الليل) كان يقف فى النهاية ممسكًا بحقيبة يد سوداء يمدها نحو (فهمى) و(منصور) فى أريحية ..

ـ كم المبلغ ؟!

تساءل (فهمى) ، فأجابه قناع (رجل الليل) :

ـ كما تم الاتفاق ، يمكنك أن تعدها ورقة ورقة لو أحببت ..

قال (منصور) :

ـ كلا ، سنأخذ الحقيبة وننصرف فى الحال ..

قال (رجل الليل) :

ـ ليس قبل أن آخذ المقابل ..

أخرج (فهمى) ملفًا مطويًا من جيب سترته الداخلى ، وسار بضع خطوات داخل الصندوق ليناوله إلى (رجل الليل) ، ويتناول منه الحقيبة فى نفس الوقت ..

تساءل (رجل الليل) وهو يلوح بالملف ـ الذى لا يزال مطويًا ـ فى وجهيهما :

ـ أيحوى هذا الملف كل تطورات المشروع ؟!

التفت إليه (فهمى) صائحًا فى حنق :

ـ يمكنك أن تراجعه ورقة ورقة لو أحببت ..

فرد (رجل الليل) ذراعيه ، وقال :

ـ كلا ، إنى أثق بكما رغم كل شيء ..

غمغم (منصور) دون صوت :

ـ ليتنى أستطيع الوثوق بك بنسبة الواحد فى الألف مليون !

بعدها بأقل من دقيقة ، كان (منصور) و(فهمى) يسيران عائدين نحو الباب المفضى إلى صالة الديسكو ، والأخير يدمدم :

ـ كف عن هذا يا (منصور) ، لا ينقصنى الآن صوت ضميرك الزاعق ..

قال (منصور) :

ـ هذا لن يغير من رأيى أنملة ..

ـ قلت لك إننا فى حاجة لهذه السيولة النقدية من أجل استمرار المشروع بعد أن تعثر التمويل الأمريكى فى دهاليز نقاشات الكونجرس العقيمة ..

ـ على الأقل يجب أن نعرف مع من نتعامل يا رجل ، هذا الغموض الذى يكتنف الجهة الجديدة التى تساعدنا يبعث على الريبة ..

توقف (فهمى) أمام الباب المتهالك ، وقال :

ـ هل تعرف ما الذى قاله (ونستون تشرشل) رئيس الوزراء البريطانى عندما انتقدوه للتحالف مع (روسيا) أثناء الحرب العالمية الثانية ؟!

نظرة خاوية فى عينى (منصور) المواجهتين له ..

ـ قال : « إننى على استعداد للتحالف مع الشيطان نفسه مادام هذا سيكون فى النهاية لصالح (بريطانيا) » ، هل تعلم ما يعنيه هذا يا زميلى العزيز ؟!

قال (منصور) :

ـ وهل ما نفعله فى صالح بلادنا حقًا ؟!

أشاح (فهمى) بذراعه :

ـ لقد فات أوان نقاش كهذا ..

ـ أخشى ما أخشاه فقط أن يمثل (رجل الليل) ـ الذى لا نعرف له هوية ـ هذا خطرًا ما علينا ، إن لم يكن الآن فمستقبلا ..

برقت عينا (فهمى) وهو يمسك بذراع (منصور) هاتفًا فى حماسة :

ـ لا تخش شيئًا ، عندما يؤتى المشروع ثماره لن نخشى شيئًا على الإطلاق ، وسيكون لدينا أقوى جهاز أمنى عرفه العالم فى تاريخه الحديث ..

دوى صوت محرك الشاحنة وهى تبتعد مغادرة المرآب ، وعندما التفت (منصور) لم يستطع أن يلمح منها إلا الوجه الكارتونى الطفولى المرتسم على جانبها ، لتلك اللعبة المسماة بـ (رجل الليل) ..

ولم يستطع فهم الرعب الذى بعثته صورة بريئة كهذه فى أعماقه لحظتها ..

★ ★ ★

ـ الآن فقط فهمت !

غمغم بها (منصور) فى استلقائه مغمض العينين على سرير الشقة الباريسية ، قبل أن يدهمه النوم فجأة ، بينما التلفاز أمامه لا يزال مفتوحًا على إحدى المحطات الإخبارية ..

★ ★ ★

هبط الشاب الحليق الرأس ، المبتسم فى ترحيب ، المرتدى سترة من الصوف الرمادى الثقيل ، درجات السلم الرخامية اللامعة ، نحو الشاب الذى يطابقه فى الملامح ، بملابسه المهترئة ، ونظراته الذاهلة حتى الموت ..

وعندما تواجها أسفل السلم ، اتسعت العيون الذاهلة أكثر ..

هتف (عمر زهران) الذاهل بالعربية :

ـ من أنت ؟! ماذا تكون ؟!

قالت نسخته الأنيقة الواقفة أمامه بنفس اللغة ، وإن شابتها بعض اللكنة الأوروبية :

ـ كما ترى ، لا خداع بصرى فى الأمر ، ولست تنظر فى مرآة أو سطح بحيرة رائق فى يوم مشمس .. أنا هو أنت ، تقريبًا !

مدت النسخة الأنيقة يدها نحو (عمر زهران) ، الذى انتفض متراجعًا خطوة إلى الخلف ، هاتفًا كأنه يوشك على ملامسة الموت نفسه :

ـ كلا .. ابتعد عنى ..

قالت النسخة الأنيقة منه :

ـ لا تخف ، لن يتلاشى أى منا إذا ما لمس أحدنا الآخر .. فى النهاية نحن كائنان منفصلان ، لكننا متشابهان إلى حد التطابق .. هذا كل ما فى الأمر !

خرج الدكتور الآسيوى (ميشيما) عن ذهوله الصامت ليتكلم أخيرًا بالفرنسية ، قائلاً :

ـ رباه .. كأنكما توءمان نتجا من انقسام خلية جنينية واحدة ، حتى التوائم المتماثلة لا تكون على هذا القدر العجيب من التطابق ..

التفتت نحوه نسخة (عمر زهران) الأنيقة ، وقالت ترد عليه بالفرنسية :

ـ نحن أقرب إلى التوءمة بالفعل يا صديقى الطبيب اليابانى .. لكننا لسنا توءمين بالمعنى المفهوم !

قال (رالف آندرسون) بالإنجليزية التى تحمل قدرًا مماثلا من الذهول :

ـ لا يمكن لهذا أن يكون تنكرًا متقنًا .. فهو متقن أكثر من اللازم !

ضحكت النسخة ، وقال الشبيه المطابق بالإنجليزية ، واضعًا يده فى جيب سترته الأنيقة التى يضوع منها عطر رجالى فواح ، متناقض تمامًا مع رائحة (عمر زهران) الأصلى :

ـ كلا يا دكتور (آندرسون) .. هذا ليس تنكرًا ، عندما أتنكر أفضل وضع هذا القناع ..

وأخرج من جيبه قناعًا كارتونيًا لطفل ، غطى به وجهه للحظة ، مما جعل الدكتور (ميشيما) يهتف فى انفعال :

ـ إنه أنت إذن .. أنت (رجل الليل) ، إنه القناع الذى رأيتك به فى مرة سابقة فى ...

قاطعه الشبيه بإشارة من سبابته ، وهو يخفض القناع من فوق وجهه ؛ لتتبدى من خلفه ملامح (عمر زهران) فى وضوح مستفز ، ويقول :

ـ كلا .. لست أنا (رجل الليل) يا صديقى اليابانى ..

غمغم (عمر زهران) باللقب هامسًا فى شك :

ـ (رجل الليل) ؟!

قال الشبيه مخاطبًا إياهم بنبرة مرتفعة :

ـ أسطورة (رجل الليل) قد انتهت أخيرًا ببلوغكم هذه النقطة من الرحلة الطويلة يا رفاق ..

قال (عمر) وصدره يعلو ويهبط :

ـ لم ينته شىء بعد ما دمت لم أعرف كل شىء ..

التفت إليه شبيهه ، وخاطبه قائلاً :

ـ الأمور أوضح من أن تفسر ، لقد كنتَ ضحية مشروع سرى زرعوا خلاله شريحة إلكترونية فى قاع جمجمتك ، وهى لا تزال هناك فى انتظار أن نستخرجها .. أليست الأمور واضحة بالفعل ؟!

سأله (عمر) :

ـ وأنت ؟! من تكون ؟!

ابتسم الشبيه ، وقال :

ـ نصفك الآخر ، الذى جاء من الماضى ليعاونك على كشف كل الحقائق ، وعلى الوقوف فى مواجهة اللحظة الحاسمة ..

هتف فيه (عمر) :

ـ تحدث دون ألغاز ، من تكون ؟! وماذا تريد مني ؟!

وضع الشبيه كفه على كتف (عمر) ، الذى ألجمته المفاجأة وشبيهه يقول :

ـ هون عليك ، ستعرف كل شىء .. أوان الهروب من المواجهة قد انتهى يا أخى العزيز ..

غمغم (عمر) مبهوتًا :

ـ أخوك ؟!

ابتسم الشبيه :

ـ وأكثر ..

ثم إنه استدار نحو باب جانبى موصد فى بهو القصر الواسع ، ومتجاوزًا النافورة الصغيرة فى منتصفه ، فرقع بإصبعيه إلى الرجل المغربى الواقف فى استكانة ،

ليهرع الأخير نحو الباب فاتحًا إياه ، بينما صوت الشبيه المطابق لصوت (عمر) أيضًا يدوى صداه فى أنحاء المكان :

ـ إنكم متعبون من السفر والاختباء الطويل بالتأكيد .. وعليه فيجب أن ترتاحوا قليلاً ..

انفتح الباب عن قاعة جانبية واسعة ، تبدت خلفها مائدة طويلة رصت عليها أصناف مختلفة من الطعام والشراب والفاكهة ، الأمر الذى جعل عينى (ميشيما) تبرقان :

ـ رباه ، طعام !

و(رالف آندرسون) يهتف :

ـ كنت سأقضى نحبى جوعًا بالفعل ..

هتف بهما (عمر) :

ـ انتظرا ، يجدر بنا أولاً أن ...

تجاوزه الرجلان نحو القاعة دون تفكير ، و(رالف) يقول كالمغيب :

ـ حتى لو كان الطعام مسمومًا ، فخير أن أموت بعد التهامه عن أن أتعذب حيًا بمشاهدته ..

ضحك الشبيه وهو يراهما يدخلان ويشرعان فى تناول الطعام فعلا ، وهتف من عند الباب :

ـ من (ماكسيم) ، كما أردتما تمامًا ..

ثم التفت إلى (عمر) سائلاً :

ـ وأنت ، ألن تنضم إليهما ؟!

ضيق (عمر) عينيه قائلاً ، وهو يحاول التغلب على إنهاكه وجوعه ، ويتحامل من أجل البقاء واقفًا على قدميه :

ـ ليس قبل أن ...

قاطعه شبيهه :

ـ لا تقلق .. تناول طعامك واصعد لتنال حمامًا ساخنًا ونومة مريحة ، ثم سنجلس معًا ، وستفهم عندها كل ما تريد أن تفهمه ..

ثم إنه مال عليه هامسًا :

ـ لا تقلق من الطعام أيضًا .. أعرف أنك مسلم ، ولا توجد به أدنى شبهة كحوليات أو دهن خنزير !!

حدق (عمر) فى ملامحه المنحوتة من قالب وجهه :

ـ على الأقل ، دعنى أعرف من أنت ..

ابتسم الشبيه ، وهو يقول :

ـ ما دام هذا سيريحك ، اسمى (تيودور) .. (تيودور أوبان) !

★ ★ ★

٣ـ الآخــر ..

« الإنسان العادى المسيطَر عليه عقليًّا سوف يصبح أرخص الآلات المستخدمة فى الخلق والإدارة والإنتاج .. »

كرتيس سكافر

مهندس إلكترونيات

★ ★ ★

فى الطابق الأخير من برج (بيكاسو) ، كان السنيور (إنريك) رئيس مجلس إدارة المجموعة المالية المتحدة المحدودة UFG ltd. ، يشعل سيجارًا لرجل أشقر ، بارز الفكين ، أزرق العينين ، جامد الملامح ، يجلس فى صالون المكتب الوثير واضعًا ساقًا فوق أخرى دون أن يتحدث ، وهو يحدق فى صورة فوتوغرافية بين أصابعه ..

وكان السنيور (إنريك) يقول فى إنجليزية مصبوغة باللكنة الإسبانية :

ـ هذه هى صورته ، سنيور (هانز) .. لقد قال السنيور (روى باور) إنه ابنه الذى سيخلفه ، وقد حضر بنفسه إلى هنا مرة أو اثنتين قبل أن يختفى تمامًا ، ثم شاهدنا صورته متورطًا فى حادث اغتيال سفيركم هنا فى (مدريد) !

حدق (هانز) فى صورة (عمر زهران) أكثر ، وهو يقول فى تركيز :

ـ أرى هذا .. ولا أتصور أنه سيظهر مجددًا عما قريب !

سأله (إنريك) فى اهتمام :

ـ ولا السنيور (روى باور) ؟!

أجابه (هانز) دون النظر إليه :

ـ ولا هذا أيضًا ..

زفر (إنريك) ، وقال إذ يخلع نظارته ويمسح زجاج عدستيها بمنديل مخصص لذلك :

ـ يا إلهي .. هذا قد يعرضنا لعثرات مالية مفزعة فى الأيام المقبلة ..

أشاح (هانز) بيديه ، ومط شفتيه قائلاً :

ـ لا عليك .. كل شىء سوف يسير على الوجه الأكمل ..

ـ لكن ، سنيور (هانز) إنـ ...

ـ ألست رئيس مجلس الإدارة الفعلى ؟!

ـ بلى ، ولكنى أتحدث عن التمويل الضخم الذى كان يوفره لنا السنيور (باور) مالك ثلاثة أرباع الأسهم الفعلية للشركة ، لو فقدناه فسوف نتعرض لهزة ضخمة لا قبل لنا بها ..

ـ قلت لك لا عليك ، لقد اشترينا حصته من الأسهم بالفعل ..

هتف (إنريك) مندهشًا :

ـ اشتريتم ؟! من تعنى يا سنيور ؟!

نظر إليه (هانز) أخيرًا ، وغاب (إنريك) فى زرقة عينيه السماويتين إذ يقول :

ـ الوكالة يا عزيزى .. الوكالة !

ربما لم يفهم (إنريك) المعنى كاملا ، لكنه اطمئن على أية حال ، وإذ نهض (هانز) قائلاً :

ـ الآن لا توجد لديكم مشكلة ، والاتصال سيكون معى مباشرة يا عزيزى .. هل هذا مفهوم ؟!

هز (إنريك) رأسه ككلب مطيع وهو يقول :

ـ بالطبع ، مفهوم .. مفهوم !

وقاد سيده الجديد نحو المصعد ، دون أن يجرؤ على أن يطلب منه إطفاء السيجار ..

وعندما انغلقت حجرة المصعد الصغيرة على (هانز) ، نفث الدخان الكثيف وهو يعاود النظر إلى الصورة فى يده ، قبل أن يمد طرف السيجار المشتعل إلى منتصف وجه (عمر) ..

فتآكلت الورقة اللامعة ..

واحترق الوجه فى مركزها تمامًا !

★ ★ ★

لم يكن نومًا ، كان أشبه بإغماءة ..

لم يأكل (عمر) كثيرًا مثلما فعل رفيقاه ، وعندما احتوته الحجرة الصغيرة فى الطابق الثانى من القصر الواسع ، بأثاثها البسيط فى أناقة ، لم يلاحقه النعاس بقدر ما طاردته الأسئلة ..

رأى على الحائط فوق السرير الصغير ملصقًا كبيرًا للقناع الذى رآه على وجه شبيهه بالأسفل ، وبجواره الكلمات الفرنسية الصارخة : (رجل الليل أكثر لعبة أطفال مبيعًا فى العالم) ، ووجد على السرير قناعًا مطاطيًا بنفس الملامح ، فجلس على الحافة وأمسك بالقناع بين يديه ، والتساؤلات فى رأسه تزداد ، وتزداد ..

على المشجب القريب كانت هناك منامة نظيفة معلقة ، وعلى الكومود المجاور مرآة ومشط وبعض العطور الفرنسية الشهيرة ، وعندما استدار لاحظ الباب الصغير الذى يفضى إلى دورة مياه تبرق أرضيتها ومراياها ، فاستسلم للمياه الساخنة ، وانسابت إلى قاع البالوعة مياه داكنة من فرط القذارة ..

ارتدى المنامة ومشط شعره وتعطر ، وعندها ، عندها فقط ، هزمه النوم ..

لم يكن نومًا ، وإنما أشبه بإغماءة ..

كان واعيًا بكل ما حوله ، ومنفصلاً عنه فى الوقت ذاته .. لعله نفس شعور المحامى (جوناثان هاركر) عندما نزل ضيفًا فى قلعة الكونت (دراكيولا) بحسب رواية (برام ستوكر) ، الفارق هنا أن المضيف ـ مصاص الدماء ـ هو نفسه الضيف ، ولتنفتح أبواب العبث على مصراعيها !

داهمته أحلام أشبه بتكوينات لوحات (سلفادور دالى) السريالية التى تشوه الواقع لتعيد خلقه من جديد ، ورأى فى تهاويم ما بين اليقظة والنوم والده بصورته المعلقة على جدار الصالون فى منزلهم ، ووالدته التى لم تكن كذلك ، ومعلمه العميد (منصور حرب) صقرًا يهوى من عليائه ، و(نادر) صديق عمره مصلوبًا إلى جواره ، و(دينا) جثة فى تابوت ، و ...

عندما تعالت الطرقات فوق باب الغرفة انتفض من فوق السرير مفزوعًا ، وهتف لاهثًا :

ـ من ؟!

لا جواب ..

تعالت الطرقات مرة أخرى ، فهتف وهو يضبط وقع أنفاسه ويسيطر بصعوبة على خفقات قلبه :

ـ اذهب .. لا أريد رؤية أحد الآن ..

لا جواب ..

ثم طرقات ..

ـ قلت لا أريد رؤية أحد الآن ..

طرقات وطرقات ..

ـ يا لك من لحوح !

انتزع نفسه من فوق السرير ، وخف السير إلى الباب وفتحه ليقول فى ضيق :

ـ قلت إننى ...

ثم ابتلع لسانه ، وكادت عيناه تقفزان من محجريهما ..

ـ عذرًا ، لم أطق صبرًا على انتظار لقائك بعد كل هذا الوقت يا عزيزى ..

كانت هناك ، تقف فى مواجهته ..

ـ (دينا) ؟!

كانت هناك ، تقف فى مواجهته ، بثوب مريمى أبيض ، وتنظر إليه بعينيها الملونتين ، والشال الأزرق يحيط بوجهها الذى بدا كنبع نور صاف ، خاصة وأنها لأول مرة تقريبًا كانت تبتسم !

★ ★ ★

وقف (هانز) بملامحه الصارمة الجامدة أمام الشرطى الإسبانى المكلف ضمن ثلاثة آخرين أقل رتبة بحراسة الجناح الذى يجرى فيه علاج المستشار الأمريكى (جيمس بامفورد) ، فى الطابق الرابع من المستشفى الملكى بـ (مدريد) ، ومد الأول يده بالورقة المبرقشة بالتوقيعات والأختام ، قائلاً :

ـ أحمل تصريح زيارة بتوقيع رئيس الشرطة شخصيًا يا سيدى ..

تناول الشرطى الورقة ونظر فيها ليميز توقيع الرئيس بالفعل ، إضافة إلى الأختام الرسمية التى ترصعها ، وتساءل بلهجة رسمية :

ـ ومن تكون يا سيدى ؟!

قال (هانز) عاقدًا يديه أمام صدره :

ـ مبعوث من وزارة الخارجية الأمريكية ، اسمى مدون لديك فى التصريح ..

هز الشرطى رأسه قائلاً :

ـ أجل ، أستطيع رؤيته يا سنيور (هانز) ، لكن .. يتعين على التأكد أولا ..

هز (هانز) كتفيه ، وقال :

ـ أسرع من فضلك ، فوقتى ضيق للغاية ..

أخرج الشرطى جهاز اللاسلكى الخاص به ، وحاول إجراء اتصال بمركز الشرطة ، إلا أن التشويش الصادر من الجهاز منعه من أن يفعل بسهولة ..

ـ تبًا ، لابد أنه معطل !

صاح بها الشرطى ساخطًا ، فقال (هانز) :

ـ والآن ماذا يا سيدى ؟!

أعاد الشرطى النظر فى ورقة التصريح التى بدت حقيقية للغاية ، وزفر ناظرًا إلى الشرطيين الآخرين اللذين تنحيا عن الأمر بحكم أنه الأعلى رتبة ، ووجد نفسه بين أمرين كلاهما صعب ، وفى النهاية واجه (هانز) قائلاً :

ـ حسنًا .. سوف أسمح لك بزيارته يا سيدى ، بعد أن يتم تفتيشك أولاً ..

رفع (هانز) ذراعيه وهو يقول فى بساطة :

ـ بكل سرور ، لا توجد أدنى مشكلة ، إننى حتى لا أحمل حقيبة يد كما ترون !

جرى تفتيشه بإمعان سريع ، ولم يتم العثور على شىء فى جيوبه بالفعل ، لا شىء بالمرة ، حتى إن الشرطى اطمأن بالفعل وهو يشير نحو الباب الموصد بقوله :

ـ تستطيع الدخول ، سنيور (هانز) .. وسنحتفظ بالتصريح حتى تنهى زيارتك إن كان هذا لا يضايقك ..

هز (هانز) رأسه نفيا :

ـ على الإطلاق .. لا يضايقنى على الإطلاق ..

قال أحد الشرطيين الآخرين :

ـ إن الطبيب يفحص السنيور (بامفورد) فى الداخل ، ألا يحسن أن تنتظر خروجه أولا ؟!

قال (هانز) ببسمة رسمها على طرف شفتيه :

ـ بل هى فرصة طيبة حتى أطمئن منه على آخر تطورات حالته الصحية .. بإذنكم ، أراكم بعد دقائق ..

دلف (هانز) إلى الحجرة ، وحاول الشرطى الأعلى رتبة معاودة الاتصال برئيسه عن طريق اللاسلكى ، لكنه لم يصادف إلا التشويش ..

داخل الحجرة ، اقترب (هانز) من الطبيب الكهل الذى فرغ من عد نبضات شريان رسغ (بامفورد) مقارنة بساعة يده ، قبل أن يدون القراءة فى اللوح الذى يحمله ، وينظر إلى (هانز) قائلاً :

ـ عذرًا .. من أنت يا سنيور ؟!

تجاهل (هانز) سؤاله ، ووجه إليه هو سؤالا إذ ينظر نحو (بامفورد) المسجى فوق السرير مغمض العينين بلا حراك ، وعشرات الخراطيم تنبعث من جسده إلى الأجهزة المحيطة به :

ـ أخبرنى ، كيف حاله الآن يا دكتور ؟!

أشار الطبيب بقلمه نحوه وأجاب فى تلقائية :

ـ أخرجنا الرصاصة من رئته اليمنى ، لكن الحالة لم تستقر بعد ، وهو لم يفق من الغيبوبة حتى الآن .. مهلاً ، لقد سألتك أولاً من تكون ؟!

قال (هانز) فى نبرة باردة ، متجاهلا سؤاله للمرة الثانية :

ـ اخرج !

هتف الطبيب فى استنكار :

ـ ماذا تقول ؟! هل أنت مجنـ... ؟!

أمسك (هانز) بذراعه فى قوة ، وهو يقول له بنفس اللهجة الباردة ، التى جمدت الدماء فى عروق الطبيب :

ـ أقول لك اخرج من هنا فى الحال ، لو كنت مصابًا بالصمم فيمكننى أن أقولها لك بطريقة أخرى ، وحذار من أن تذكر شيئا عنى للمهرجين الثلاثة الواقفين بالباب .. مفهوم ؟!

اتسعت عينا الطبيب وهو يحدق فى العينين الزرقاوين ، ثم إنه استدار على الفور وغادر الحجرة فى طاعة صامتة ، فى حين بدأ (هانز) عمله على الفور ..

اتجه إلى منضدة الدواء القريبة ، وأخرج محقنًا بلاستيكيًا نزع عنه غلافه فى سرعة ، واقترب من (جيمس بامفورد) ليكشف ذراعه اليمنى ، ثم إنه غمغم :

ـ ليحفظ الله (أمريكا) !

وحقن الهواء فى أحد أوردة (بامفورد) ..

ثم إنه أعاد حقن الهواء أكثر من مرة فى عروقه ، حتى استوى المؤشر فوق الشاشة الصغيرة فوق رأسه ، مصدر صفير انقطاع كهرباء القلب ، ومن ثم انقطاع الحياة .. نفسها !

فى الخارج هتف الشرطى الأعلى رتبة مغتبطًا وهو يلوح بجهاز اللاسلكى :

ـ لقد عاد إلى العمل أخيرًا ..

ثم إنه أجرى اتصاله السريع :

ـ مركز الشرطة الرئيسى ؟!

ـ أجل ، أسمعك بوضوح ..

ـ هل أصدرتم تصريحًا لمبعوث من وزارة الخارجية الأمريكية بزيارة السنيور (جيمس بامفورد) فى المستشفى الملكى ووقعه الرئيس شخصيًّا ؟!

ـ انتظر لحظة ..

ثم الصاعقة :

ـ كلا ، لم يحدث .. تأكد مما يحدث لديك رجاء ..

ـ ماذا ؟!

هتف بها الشرطى فى فزع ، وهو ينظر نحو الباب المغلق ، ثم إلى التصريح الموقع والمختوم فى يده ، بينما الصوت يدوى عبر اللاسلكى فى يده الأخرى :

ـ السيد رئيس الشرطة ينفى تمامًا استصدار أى تصاريح زيارة موقعة من قبله ، رجاء تحقق مما يحدث لديك ..

أشهر الشرطيان الآخران مسدسيهما وصوباه نحو الباب ، وهتف فيهما الأعلى رتبة :

ـ اقتحما الغرفة على الفور ..

اقتحماها على الفور ، وهرول هو خلفهما ، ليصطدم الجميع بمشهد (جيمس بامفورد) ممددًا على السرير ، دون أثر لأى مخلوق آخر فى الغرفة سواه ..

انحنى واحد من الرجال وحمل المحقن الفارغ من فوق الأرض :

ـ ما هذا ؟!

بينما نظر الأعلى رتبة إلى الشاشة الصغيرة التى أصدرت صفير الموت ، وهتف فى جزع :

ـ يا إلهى ، لقد قتله دون أن يفصل بيننا وبينه إلا جدار ..

هرش الثالث فى رأسه وهو يسأل فى حيرة ناظرًا يمنة ويسرة :

ـ لكن .. أين ذهب ؟! إنه لم يغادر الغرفة من الباب وإلا رأيناه ..

ارتعشت سبابة الأعلى رتبة وهى تشير إلى النافذة أثناء قوله :

ـ ولم يهرب من النافذة أيضًا ..

وكان محقًا ، فالنافذة ، كانت موصدة بإحكام ..

من الداخل ! !

★ ★ ★

ضغط (هانز) دواسة وقود سيارته (الفورد) والمستشفى تبتعد وراء ظهره ، ولم ينس أن يغلق زر التشويش على الإرسال اللاسلكى فى يده ، والذى يعمل فى نطاق محدود ، فور مغادرته المستشفى عبر فتحة التهوية ..

المهمتان اللتان جاء بصددهما فى (مدريد) قد تمتا بنجاح ، ولابد أن رنين الهاتف المحمول على المقعد المجاور يحمل أوامر جديدة بالتحرك ، أو على الأقل الكمون المعتاد حتى تصدر أوامر جديدة ..

ضغط زر قبول المكالمة :

ـ (هانز) ، رائع .. لقد قمت بواجبك خير قيام ..

قال (هانز) :

ـ يمكنكم دائمًا الاعتماد علىّ ..

أتاه الصوت من الجانب الآخر رصينًا غير مميز كما هى العادة :

ـ هذا ما سنفعله ، عليك الآن التوجه إلى (باريس) فى أقل من ساعة !

ـ سأفعل ..

ـ اتجه إلى النقطة (٣ ن ٩٤٩) ، ستجد هناك مروحية جاهزة لتقلك إلى الهدف فى الزمن المطلوب ..

ـ وما هو الهدف هذه المرة ؟!

صمت الصوت للحظة عند الجانب الآخر ، قبل أن يقول :

ـ إنها مجموعة من الأهداف فى قصر كبير ، منهم واحد يهمك أنت بالذات ..

ـ من ؟!

ـ ستعرف كل شىء فى الوقت المناسب !

★ ★ ★

قال (عمر) وهو يسير إلى جوار (دينا) فى حديقة القصر ، والشمس تبرز من وراء الغيوم لتسبغ دفئًا على البرد الشتوى القارس :

ـ أكاد لا أصدق ، أشعر أن كل ما يجرى لى منذ أيام ليس إلا حلمًا .. أو لعله كابوس !

ابتسمت (دينا) وقالت :

ـ انتظر حتى تعرف كل شىء ، وأخبرنى بعدها عن اختلاط الحلم بالواقع ..

توقفا ، وجلسا على مقعد رخامى ، ليقول (عمر) فى دهشة :

ـ لكنك تبدين فى حالة اتساق غريب مع كل هذه الأحداث الرهيبة ، حتى الدهشة تبدو بعيدة عنك ..

قالت وهى تنظر إلى السماء :

ـ تستطيع القول أنى تأقلمت بسرعة ، أو لعلى كنت أتوقع ما يجرى ، فامتصصت الصدمة بأسرع مما قد تفعله حقيبة الهواء فى تلك السيارة ..

كانت تشير إلى السيارة (المرسيدس) الفخمة التى أقلته مع رفيقيه إلى القصر ، فابتسم لتشبيهها قبل أن يقول :

ـ ليس من السهل أن يتوقع المرء وجود جسم غريب فى جمجمته ..

قالت وهى تنزع الشال الأزرق من فوق رأسها :

ـ أتفق معك ، ومن الأسهل قطعًا أن يتم نزعه من جمجمتك قبل أن تعرف بوجوده أصلاً ..

اتسعت عينا (عمر) وهو ينظر إلى رأسها الحليق تمامًا ، وعلى الجانبين آثار لجروح مخاطة جيدًا فى طريقها للاختفاء ، وهتف :

ـ أنت أيضًا كانت فى رأسك شريحة إلكترونية ؟!

مدت يدها إلى جيب ثوبها ، وأخرجتها بجسم دقيق قائلة :

ـ ها هى ذى ، منحوها لى بعد أن أخرجوها على سبيل التذكار ..

أمسك بالجسم الدقيق وتمعن فيه بين إصبعيه ، محاولاً إقناع نفسه أن فى رأسه لا يزال جسم مشابه لهذا ، لكن الفكرة جعلت بدنه يقشعر ..

ـ من هؤلاء الذين أخرجوها من رأسك ؟! وكيف ؟!

سألها ، فأجابت :

ـ لم يهمنى كثيرًا أن أعرف من ، وبالنسبة لكيف فهى جراحة ميكروسكوبية معقدة قالوا لى إنها استغرقت وقتًا طويلاً ومجهودًا مضنيًا ..

عاد يسألها :

ـ من الذى قال لك ؟!

ابتسمت من جديد ، وقالت :

ـ أنت .. كان وجهك هو أول ما رأيت بعد أن أفقت ، بعد أن سمعت صوتك وأنا فى قمة رعبى بالطبع ..

بادلها الابتسام إذ قال :

ـ تعنين .. (تيودور) ؟!

ـ لقد قابلته بالتأكيد ..

ـ ولم أفهم شيئًا ، من هو ؟! وكيف لنا أن نتشابه إلى هذا الحد ؟!

ـ لعلك تفضل أن يخبرك بنفسه ..

ونهضت ممسكة بكتفه :

ـ هيا بنا نذهب إليه ، سنجده فى مكتبه بالتأكيد ..

نهض (عمر) ، وقال فى وجل :

ـ لم لا تخبريننى أنت بما تعرفينه أولاً ، على الأقل حتى تهونى علىّ من أثر الصدمة ..

أمسكت بالشال وعادت تغطى به رأسها ، وتقول :

ـ ليكن ، لكن .. حاول أن تتماسك فلن أقوى على حملك بمفردى ..

ابتسم قائلاً وهو ينظر إليها ، ملوحًا بالجسم الدقيق بين إصبعيه :

ـ لو كانت الشريحة الإلكترونية هذه هى سبب ثقل ظلك الشنيع فى الماضى ، فليس أجمل من أن يتم إخراجها من داخل رأسك يا عزيزتى ، أو أن يكون الأمر برمته محض حلم سأفيق منه عاجلا أو آجلا ، وتكونين كما أنت فى الواقع ، ثقيلة الظل إلى حد لا يطاق !

قالت وهى تقرصه فى ذراعه :

ـ ابتسم يا عزيزى ، لست فى حلم إن كان ذراعك يؤلمك الآن ..

تأوه (عمر) ضاحكًا ، ثم إنه قال :

ـ هيا ، هاتى ما عندك الآن ..

قالت على الفور :

ـ حسنًا .. ما أعرفه أن (تيودور) عبارة عن كائن مستنسخ من خلية جسدية أُخذت منك وأنت طفل صغير ، كتجربة معملية أثبتت نجاحها وإن لم تعلن وقتها ، إذ تمّت فى إطار المشروع السرى الكبير الذى زرعوا فيه الشريحة الإلكترونية داخل رأسك ورأسى .. فما رأيك ؟!

ارتسم رأى (عمر) على وجهه الذى تطايرت البسمة منه تمامًا ، وحل محلها تعبير غريب امتزج فيه التوتر بالغضب ..

وبالخوف ..

★ ★ ★

٤ـ الماضى ..

« قد لا تستطيع أن تمنع طيور الحزن من التحليق داخل عقلك ، لكنك تستطيع منعها على الأقل من بناء أعشاشها على فروة رأسك .. »

مثل صينى

★ ★ ★

دق الرئيس الأمريكى بقبضته سطح مكتبه فى سخط ، وهو يهتف :

ـ يا للفضيحة المدوية .. مستشارى يُقتل غيلة فى (مدريد) ، ويموت قبل أن ننجح فى نقله إلى هنا .. ماذا تركنا لرجال السياسة فى العالم الثالث إذن ؟! أى خلل أمنى يعترى جهازك المخابراتى يا (لارسون) ؟!

تحلى الجالس أمامه بشعر رأسه الأبيض الخفيف ، وملامحه الحادة ، ونظارته الطبية الصغيرة بالصمت ، فى حين قالت (باربرا) الشقراء وهى تشير إلى أوراق متراصة فى ملف مفتوح بين يديها :

ـ الأسبان ينفون عن أنفسهم تهمة التقصير ، ويشيرون إلى اختراق احترافى للحصار الأمنى المضروب حول السيد (بامفورد) فى المستشفى الملكى ، ربما يكون قد عجل بوفاته .. سنعرف كل شىء من تشريح الجثة على أية حال ..

غمغم الرئيس الأمريكى وهو يشرد بعينيه فى المجهول :

ـ لن نسكت ، يجب أن نعثر على الفاعل ، ونوجه له ضربة أقوى من التى وجهها لنا .. هذه قواعد اللعب مع الأقوياء ..

تكلم (لارسون) أخيرًا ، وهو يعدل من وضع نظارته الطبية فوق أنفه بحركة اعتياد :

ـ السؤال هو : إلى من سنوجه ضربتنا يا سيادة الرئيس ؟!

أجاب الرئيس الأمريكى دون تفكير :

ـ من فعلها بالطبع .. علينا أن نبحث جيدًا خلف نيول تنظيم (القاعدة) أو التنظيمات العراقية السرية أو ...

قاطعه (لارسون) فى لهجة واثقة :

ـ أو المصريين يا سيدى ..

عقد الرئيس الأمريكى حاجبيه مغمغمًا :

ـ المصريون مرة أخرى ؟! إنها المرة الثانية التى أسمع فيها عن تورطهم فى أمر يخصنا فى غضون نهار وحيد !

فسر (لارسون) بقوله :

ـ ليس لدينا الآن إلا الدليل الذى أذاعته محطة (فى بى سى نيوز) حول تورط أحد رجالهم فى حادث السفارة ، صحيح أنهم توقفوا فجأة عن متابعة البث دون إبداء أسباب ، غير أن هذا خيط قوى يمكن أن يقودنا نحو شىء ما ..

شبك الرئيس الأمريكى كفيه تحت ذقنه وهو يحدق فى (لارسون) هامسًا :

ـ هل لديك اقتراح محدد يا مستر (لارسون) ؟!

قال (لارسون) فى هدوئه الثعلبى ، وبأسلوب منمق كأنه أعد العبارات جيدًا فى رأسه :

ـ أن نرسل سفيرنا فى (القاهرة) إلى رئاسة الجمهورية المصرية على الفور ، بمطلبين واضحين ومحددين .. أولاً : تسليم رجلنا المحتجز (روى باور) إلى السفارة على الفور ، على أن يتم الأمر فى إطار السرية دون أن يتسرب لأى جهاز إعلامى محلى أو دولى .. ثانيًا : إمدادنا بأى معلومات حول المشتبه به فى حادث السفارة ، والتعهد بتسليمه لنا لمحاكمته فى حال ثبوت الاتهام عليه ، من أجل معرفة أغراضه ومن وراءه ..

تساءل الرئيس الأمريكى وهو يحدق فى مسئول المخابرات أكثر :

ـ هل تريد القول بأن الأمرين متصلان ببعضهما ، مستر (لارسون) ؟!

صمت (لارسون) للحظة ، قبل أن يقول :

ـ كل شىء متصل ببعضه يا سيادة الرئيس .. كل شىء ..

رفع الرئيس الأمريكى سبابته نحو (باربرا) قائلاً :

ـ (جينا) ، نفذى الأمر على الفور ..

هزت (باربرا) رأسها، وغمغمت إذ تغادر المكتب وتغلق بابه خلفها :

ـ (باربرا) .. اسمى (باربرا) !

★ ★ ★

جلست (دينا) باسمة فوق الأريكة الوثيرة ، فى غرفة واسعة بالطابق الأرضى من القصر ، تطل على الحديقة الخلفية عبر شرفة موصدة ونافذتين كبيرتين ، وتحوى أثاثًا كلاسيكيًّا من مكتبة تتراص فيها المجلدات القديمة ، ومدفأة تطقطق فيها الأحطاب إذ تلتهمها النيران ، ومكتب خشبى بمقعد من طراز (لويس السادس عشر) ، يجلس عليه (تيودور) بسترته الرمادية الأنيقة ، وأمامه يقف (عمر) بملابس النوم ، وبملامح حلقت فوقها غيوم الاكفهرار ..

ابتسمت (دينا) أكثر ، فلو لم تكن معهما الآن ، لظنت الأمر خداعًا بصريًّا من الذى يلجأ إليه مخرجو السينما لصنع نسخة من البطل وشبيهه ، يتحادثان ويتفاعلان فى إطار كادر واحد ..

كان (تيودور) يقول :

ـ فعلا ، ما قالته (دينا) صحيح .. مادتنا الوراثية واحدة بالفعل ، لكنك سبقتنى فى الحياة بعدة شهور ، وهو ما يجعلك أخى الأكبر على اعتبار أن ما بيننا يمكن وصفه بالأخوة ..

ثم إنه عقد حاجبيه متسائلاً فى رفق :

ـ هل يضايقك الأمر إلى هذا الحد ، عزيزى (عمر) ؟!

جلس (عمر) فوق المقعد المقابل للمكتب ، وقال محاولاً العثور على سبب حقيقى لضيقه :

ـ ربما لا يكون ضيقًا بالمعنى المفهوم .. لكنه الشعور الذى يراودك عندما يستولى أحدهم على شىء تملكه دون الرجوع إليك ..

قالت (دينا) ، وعيناها تلمعان :

ـ تقصد أن ما حدث كان اعتداء على حقوق الملكية الخاصة بمادتك الوراثية ؟!

كاد (عمر) أن يجيبها بالإيجاب ، غير أن (تيودور) قد تدخل هاتفًا وهو يعامد بين كفيه :

ـ مهلاً .. مهلاً .. نقطة نظام .. هذا يجعل منى مجرد نسخة مسروقة من الحمض النووى الخاص بك ، وينزع عنى صفة التفرد الإنسانى ..

قال (عمر) مفكرًا :

ـ المنطق يقول إنه لولا وجودى لما وجدت أنت أصلاً يا مسيو (تيودور) !

أشار نحوه (تيودور) بسبابته مصححًا :

ـ على هذه الصورة .. لم أكن لأوجد على هذه الصورة فحسب .. لا تنصب من نفسك حكمًا على وجودى من عدمه يا عزيزى (عمر) ..

ثم إنه ابتسم مضيفًا :

ـ ولو كنت تنوى الدفاع عن حقك فى امتلاك مادتك الوراثية ، فعليك بمقاضاة من سرقوها منك وفقًا لتشريعات لم تصدر بعد !

غمغم (عمر) وهو يعتصر قبضته مجاهدًا لقهر ضيقه :

ـ أى أخلاقيات كان يتمتع بها أولئك الذين فعلوا بنا ما فعلوه ؟!

قال (تيودور) هازًا رأسه فى تفهم :

ـ لحسن الحظ أنها كانت تجربة وحيدة لم تتكرر ، أعنى استنساخى منك يا أخى العزيز !

قالت (دينا) وهى تهز كتفيها فى نشوة خفية المصدر :

ـ من يدري ؟! من كان يدرى أصلاً بوجود هذه التجربة حتى نجزم بعدم تكرارها ؟!

قال (تيودور) :

ـ هذا ما أخبرنى به الدكتور (متشيل دنكان) ، الأب الروحى لتجربة الاستنساخ هذه ، بالاشتراك مع المسيو (دوبويه تشايمر) لو كنتما تعرفانه ..

عقد (عمر) حاجبيه متذكرًا :

ـ (تشايمر) ؟! أهو قريب لـ .. ..

قاطعه (تيودور) وهز رأسه أن نعم :

ـ مدموازيل (مادلين تشايمر) .. أجل ، هو والدها المباشر الذى ورثت عنه مؤسسة تكنولوجيا الاتصالات

الضخمة ، تلك التى ترأسها حاليًا .. الكرة الأرضية ضيقة للغاية ، أليس كذلك ؟!

ثم إنه عاد يستطرد :

ـ على أية حال ، كان الدكتور (متشيل) والمسيو (دوبويه) يجهزان مشروع الاستنساخ الحيوى هذا كتفريعة سرية من المشروع السرى الرئيسى لحساب جهة أخرى لم يكن يعلمها إلا (دوبويه) نفسه ، وكان الدكتور (متشيل) مسئولا عن الجانب التقنى وحده .. وبعد أن لقى المسيو (دوبويه) مصرعه فى أواسط الثمانينيات فى حادث تصادم ربما كان عرضيًا وربما كان مدبرًا ، إذ لم تحسم هذه المسألة إلى الآن ، وجد الدكتور (متشيل) نفسه وحيدًا فى العراء بصحبة طفل ، بعد أن انقطعت صلته بجهة تمويل المشروع الفرعى هذا نهائيًا !

سأل (عمر) فى فضول :

ـ وماذا فعل إذن ؟!

ـ الصواب .. فعل الصواب .. وجد لى زوجين ثريين لم يرزقا بأطفال فتبنيانى ، ومنحانى اسم (تيودور أوبان) الملتصق بى حتى الآن ، وربيانى تربية مثالية ، هكذا عشت معهما واهتممت بدراسة اللغات المختلفة ومنها العربية حتى نلت درجة الدكتوراه من أعرق جامعات (أوروبا) ، وعندما توفيا ورثت عنهما ثروة ضخمة ما زلت أرفل فى نعيمها حتى الآن ..

سألته (دينا) :

ـ ما لم أعرفه منك ، هل كنتَ جزءًا من المشروع السرى الرئيسى أم ... ؟!

ابتسم (تيودور) وهو يجيبها :

ـ تعنين هل دماغى نظيفة أم مزروعة ؟! كلا ، أنا نظيف تمامًا .. أكثر من هذا ، أعيش حياة بسيطة فى منزل بحرى بـ (مارسيليا) ، ولى زوجة وطفلان يشبهاننى بعض الشىء .. انظر ..

تناول (عمر) منه ألبوم صور ، وأخذ ينظر فيه إلى صوره مع زوجته الفرنسية الحسناء ..

ـ هذه زوجتى (إيف) .. بالعربية هى (حواء) ..

وصوره لاعبًا فى المساحات الخضراء وحوض الاستحمام مع طفلين يشبهانه بعض الشىء ..

ـ وهذه ابنتى الكبرى (شارلوت) .. أربع سنوات .. وابنى الأصغر (أبراهام) .. سنتان ونصف ..

ابتسم (عمر) قائلاً فى حميمية :

ـ لقد سبقتنى فى الاستمتاع بحياتك ، رغم أنى أسبقك فى الحياة ببضعة شهور ..

نهض (تيودور) نحو المدفأة .. أمسك بقطعتين من الحطب الجاف وألقاهما فى معترك الجمر المشتعل .. ثم أخذ يقلبها بعصا معدنية طويلة ويقول :

ـ يتناقلون على لسان (رجل الليل) تعبير : (الجهل نعمة) .. وأنا أختلف معه ، إن المعرفة هى النعمة الكبرى ، وما الجهل إلا غرق موحل فى مستنقع الحماقة .. ربما يستخدمونه للسيطرة على عقول العامة والدهماء بالجهل كما يفعلون على مر العصور ، وربما بهذا المعنى فقط يكون الجهل نعمة بالنسبة لمن يستخدمونه لا بالنسبة لمن ينعمون به !

سأله (عمر) ناظرًا إلى ظهره :

ـ هل أنت (رجل الليل) هذا ؟!

التفت إليه (تيودور) قائلاً فى استعراضية :

ـ وهل أبدو كرجل ليل حقًا ؟!

هتف (عمر) :

ـ كفانا لعبًا وأخبرنى بكل شىء ، إن كنت هو أو لم تكن ، فلماذا تفعل كل ما تفعله ؟! ما هى مصلحتك الحقيقية من وراء وجودنا هنا الآن معًا ؟!

قال (تيودور) دون أن تتلاشى بسمته ، وبنظرة جانبية استطاع أن يلمح أن (دينا) تبتسم هى الأخرى :

ـ ليكن ، سأخبرك بنصيبى من قصة (رجل الليل) هذه كلها .. وسأعود بذاكرتى معك إلى طفولتى يوم كانت دمية (رجل الليل) هذه لعبتى المفضلة ، وكان زيه وقناعه هما الزيان المفضلان لى فى كل المناسبات الاحتفالية .. أذكر أيضًا المسلسل الكارتونى الذى كان يذاع فى أوائل الثمانينيات بكل اللغات الأوروبية من بطولة (رجل الليل) ، وكيف فتن كل الأطفال فى ذلك

العهد .. فى أواخر عقد الثمانينيات ذاك ، وبعد أن تبنانى (جاك أوبان) و(أوديت أوبان) ، أغلق المصنع أبوابه عندما أفلس ، وتوقف المسلسل الكارتونى أيضًا ، وكانت هذه أسوأ أيام حياتى على الإطلاق !

غمغم (عمر) فى تهكم :

ـ يا للطفل المدلل !

تابع (تيودور) وهو يطير على أجنحة الذكريات :

ـ فى أواسط التسعينيات ، فور بلوغى سن الرشد ، وكان والدى بالتبنى قد ماتا تباعًا لا يفرق بينهما سوى شهور ، قررت أن أحقق حلمى القديم .. اشتريت ببعض أموالى المصنع وحقوق اللعبة الفكرية وأنا أنوى جديًا إعادة بعثها إلى الحياة ، ولكنى وجدت فى أقبية المصنع الملفات التى أدت بى إلى نقطة وجودنا هنا حاليًا ..

برقت عينا (دينا) من جديد وهى تقول :

ـ ملفات المشروع السري ..

قال (تيودور) معطيًا ظهره لهما ، ومعاودًا التقليب فى الحطب :

ـ لم تكن الصورة واضحًا أمام عينى كما هى عليها الآن ، بل كانت أشبه بالأحجية المقطوعة Jigsaw Puzzle ، التى تنقصها الكثير من القطع ، وهو ما جعلنى أستلهم شخصية (رجل الليل) القديمة وأبعثها فى عالم الليل السفلى عبر محترفين نظير أجر ، وعبر السنوات استطعت تجميع القطع الناقصة ، وتوصلت إلى الحقيقة كاملة ، بل وعثرت على الدكتور (متشيل) أيضًا .. وجدته فى (المجر) يخوض تجربة علمية مجنونة أخرى مع طبيب مجرى يدعى (رومانو ماركوس) .. تجربة تدور حول مسح الذاكرة ..

هتف (عمر) فى دهشة وهو ينظر إلى (دينا) :

ـ تلك التجربة التي ... ؟!

ابتسم (تيودور) وقد انعكس وهج الرماد فوق ملامحه ، وقال دون أن يلتفت نحوهما :

ـ ما زالت الكرة الأرضية ضيقة للغاية .. أليس كذلك ؟!

ثم إنه استدار أخيرًا ، مستطردًا :

ـ الخلاصة أنه بعد هذه السنوات استطعت أن أمسك بأطراف كل الخيوط ، تحت سلطة الأسطورة التى

ابتدعتها من وراء قناع (رجل الليل) .. من (مادلين تشايمر) ، إلى (روى باور) ، و(المكتب ١٧) ، والدكتور (رومانو ماركوس) ، والدكتور (متشيل دنكان) ، و(كارلا روبرتس) ، وغيرهم وغيرهم ، وسأترك لك مهمة تخيل الأدوار الخفية الذى قمت به من أجل أن أصل بكما إلى هذه النقطة ، حتى تحصلا على حقكما الطبيعى فى حياة خارج السيطرة ..

باغتت الفكرة (عمر) ، ففغر فاه صائحًا :

ـ أنت إذن المدبر الرئيسى لحادث السفارة ومحاولة اغتيال المستشار الأمريكي ؟!

هز (تيودور) كتفيه قائلاً فى استهانة :

ـ إلى حد ما .. كانت خطوة أخرى لأجتنبك نحو ضوء الحقيقة فى آخر النفق .. لكن يبدو أن هناك يدًا خفية أخرى تدير الصراع ضدى ، جهة لا أعلمها .. هى التى جعلت رصاصة حقيقية تصيب صدر (بامفورد) فى حفل السفارة ، رغم أن المسدس الذى أعطتك إياه (مادلين) كان خاليًا من الرصاصات ، وهى التى أدت إلى مصرعه داخل المستشفى فى (مدريد) قبل ساعتين على الأكثر أيضًا ..

عاد (عمر) يصيح :

ـ (جيمس بامفورد) مات بالفعل ؟!

هز (تيودور) رأسه إيجابًا فى أسف ، وقالت (دينا) بعد لحظة تفكير :

ـ ببعض المنطق ، إنها نفس الجهة التى جعلت ملفات المشروع السرى القديم تعرف طريقها إلى قبو مصنع ألعاب (رجل الليل) !

عقد (تيودور) حاجبيه ، وقال :

ـ تعنين أن هناك (رجل ليل) آخر فى الأمر ، فى ذلك الزمن الغابر على الأقل ؟!

قبل أن تجيبه (دينا) ، صاح (عمر) مجددًا :

ـ ما لا أفهمه هو : لماذا كل ألاعيب الحواة هذه ؟! لماذا ما دامت نيتك الطيبة هى مواجهتنا بالحقيقة لم تقصد أقصر الطرق بين نقطتين ، وهو الخط المستقيم ، وتصارحنا بكل شىء دون الحاجة إلى مواقف معقدة من هذا النوع ؟!

قال (تيودور) فى نشوة :

ـ وأين المتعة فيما تقول يا أخى ؟! إن جوهر لعبة (رجل الليل) الدرامية هى الغموض الذى يؤدى إلى مزيد من الغموض .. كلما انكشفت مساحة من الضوء وجدت نفسك أمام مساحات لا نهائية من الظلام .. اقترب تزدد بعدًا .. بهذه الطريقة ألهب مسلسل الكارتون خيال ملايين الأطفال من وقتها إلى الآن .. ثم لاحظ أن المكاشفة كان يجب أن تتم بالتدريج ، حتى لا يقتحم عليك أحدهم حياتك المعتادة قائلاً : من فضلك يا أخى ، هناك شريحة إلكترونية مزروعة فى جمجمتك وكل حياتك السابقة مجرد زيف ، ماذا يمكن أن يكون رد فعلك وقتها ؟!

قال (عمر) فى عناد :

ـ هذا ليس مبررًا كافيا لكل الدم الذى أريق ، وكل المخاطر التى كابدناها حتى وصلنا إلى هنا ..

تنهد (تيودور) ، وقال واضعًا عصا تقليب الأخشاب جانبًا :

ـ لقد اجتزنا المرحلة الصعبة ، وهانت قد عرفت كل ما يمكن معرفته يا عزيزى ..

أطرق (عمر) مغمغمًا فى ألم :

ـ أجل ، رغم أنى لم أستطع ابتلاع الصدمة كاملة حتى الآن ..

ـ ستفعل ، عندما تخضع لجراحة استخراج الشريحة الإلكترونية من رأسك !

رفع (عمر) عينيه إلى (تيودور) وقد صدمته الفكرة المباغتة :

ـ ماذا ؟! لكن ...

قاطعه (تيودور) :

ـ هذه هى المرحلة الأخيرة من اللعبة ، الحلقة الأخيرة من الموسم الأول من المسلسل ، حيث تنفقئ الفقاعة ، ويكتشف الأبطال حقيقتهم ، ويبدءون فى اتخاذ دروب جديدة لمستقبلهم .. لقد جاهدت من أجل محو كل شىء ، وسعيت من خلال اتصالاتى لإعدام شريط الدليل الذى يدينك فى حادث السفارة داخل محطة (بى فى سى نيوز) ، و(كارلا روبرتس) نفسها تم فصلها من المحطة حتى تنسى الأمر برمته ..

تساءل (عمر) وشعور بعدم الراحة يوغر صدره :

ـ وإن نسيت هى ، هل ينسى الناس ؟!

قال (تيودور) بمزيد من الابتسام :

ـ سوف ينسونِ بأسرع مما ستفعل هى ، خاصة مع عدم وجود من يذكرهم ..

أوغر الشعور بعدم الراحة صدر (عمر) أكثر :

ـ وماذا عن (كارلا) ؟! كيف ستقنعها بألا تفعل ؟!

ـ سوف تخضع (كارلا روبرتس) لعملية مسح ذاكرة ، تحت إشراف الدكتور (متشيل) نفسه يا عزيزى !

قالها (تيودور) فى بساطة ، فهتف به (عمر) فى قوة غاضبة :

ـ كلا .. هذا لن يحدث .. يجب أن يتوقف العبث عند هذا الحد ..

واصل (تيودور) بنفس البساطة :

ـ السيناريو مكتوب بالفعل ويجرى تنفيذ مراحله النهائية حاليًا .. (كارلا) ستعود إلى عملها بعد أن

تنسى كل ما يتعلق بحادث السفارة وبك .. أنت ستخضع لعملية استخراج الشريحة من رأسك وستختار الحياة التى تحب أن تعيشها فى أى مكان من العالم ، بدعم مالى قوى منى .. و(دينا) قد اختارت بالفعل ، سوف تكمل دراستها للتقنيات فى إحدى جامعات (برلين) بهوية جديدة ، على طريقة إعادة التسكين فى برنامج حماية الشهود الأمريكى .. نعم ، أنتما تخصاننى ويتوجب علىّ حمايتكم ..

انتفض (عمر) من فوق مقعده زاعقًا :

ـ أفق يا صاح ، نحن على الأرض ، فى عالم الواقع ، ولسنا أبطال مسلسل كارتونى من مسلسلاتك .. ترى ، هل تعى هذا ؟!

والتفت إلى (دينا) سائلاً بنفس النبرة العصبية المرتفعة :

ـ هل توافقينه على هذا الهذر ؟!

قالت (دينا) فى هدوء استفزه أكثر :

ـ بالنسبة للجزء الخاص بى فأنا موافقة ، لن يشفى جراحى إلا الابتعاد عن حياتى القديمة تمامًا ، والولادة مرة أخرى فوق أرض بكر .. ليس هناك ما أبكى عليه فى ماضيى !

صاح (عمر) وقد فقد أعصابه كليًا :

ـ لكنى لست موافقًا على الجزء الخاص بى .. لن تسلبونى حرية الاختيار مرتين .. و(كارلا) أيضًا ، يجب أن تختار .. حرية الاختيار هذه هى ما تجعلنا بشرًا ، هل تفهماننى ؟!

ثم وجه صياحه إلى (تيودور) :

ـ أين هى الآن ؟! أهى معنا فى هذا القصر ؟!

قال (تيودور) :

ـ كلا ، إنها مع الدكتور (متشيل) فى دير (بورروايال دى شامب) القديمة المهجورة ، جنوب غابات (بولونيا) ، حيث سيجرى عليها التجربة اليوم ، بعد ساعة على الأكثر ..

صاح (عمر) وهو يهرول نحو الباب :

ـ لن أسمح لكم بمزيد من هذا العبث .. هذا الهراء يجب أن يتوقف الآن .. الآن ..

واختفى خلف الباب ، فالتفتت (دينا) إلى (تيودور) قائلة :

ـ لم أتوقع أن يكون رد فعله حادًا هكذا !

قال (تيودور) وهو يرقب حركة دوران الباب المفتوح ، وقال فى عمق :

ـ لا تقلقى .. حتى الارتجال والخروج عن النص تم حسابهما جيدًا .. المشكلة أن هناك من الأبطال واحدًا يلقى حتفه دائمًا فى الحلقة الأخيرة من مواسم (رجل الليل) ، وأخشى ما أخشاه أن يكون (عمر) هو صاحب هذا الدور ، فى هذا الموسم !

★ ★ ★

تلبدت سماء (باريس) بالغيوم الرمادية الثقيلة مع اقتراب المساء ، وهو ما أنذر بهبوط مطر ثقيل ربما على مدار الليلة بطولها ..

لفحت نسمة باردة وجه العميد (منصور حرب) إذ غادر البناية التى يقيم بها ، متجهًا إلى آخر الشارع حيث تقوم مكتبة تعرض واجهتها الصحف الأوروبية المختلفة ، فابتاع عددًا من الجرائد الإسبانية المسائية ، وأخذ ينظر إلى عناوينها الداخلية ، حتى وجد ضالته أخيرًا ..

أخبار صغيرة فى عدد من الصحف حول مقتل إسبانى مجهول الهوية فى إحدى الشقق المؤجرة للسياح بالعاصمة (مدريد) ، حاملا بندقية صيد ، وفى جيبه رزمة نقود ..

هذا كل شىء ..

ـ تبًّا ، لقد فشلت مهمته إذن !

غمغم بها وهو يلقى الصحف فى سلة المهملات ويعض على نواجذه فى قوة ، وارتفع الصوت البعيد فى أعماقه يهون عليه ، ويخبره أنه ربما كان من الأفضل أن المهمة قد باءت بالفشل ..

تجاهل الصوت وأعاد قمعه بمنتهى العنف ، وهو يفكر فى النقطة الأكثر الأهمية :

(مادلين) سوف تسعى خلفه هنا فى (باريس) بالتأكيد ، فهو أكثر من يمكن أن يخطط لقتلها بهذه الطريقة ، ونظرًا لكونها تسيطر على شبكة اتصالات واسعة فى (فرنسا) كلها ، فالبلاد كلها إذن لم تعد مكانًا آمنًا بالنسبة له إلى هذا الحد ..

عليه أن يغير موقع نقطته الآمنة الحالى على الأقل ..

وعندما صعد البناية التى يقيم بها ، وجد باب الشقة مواربًا ..

هو واثق أنه قد أغلقه خلفه ، ولهذا فقد استل مسدسه ، ودفع الباب بقدمه الهوينى ، وأشهر المسدس على امتداد ذراعه ، قبل أن يندفع فى خفة إلى الداخل ..

لم يقابله أحد فى الممر القصير المفضى إلى الصالة ، فاستند بظهره على الجدار متسلسلا فى هدوء إلى الداخل ، وعاد يشهر المسدس على امتداد ذراعه دائرًا بسرعة فى الصالة الخالية ، وهكذا لم يبق سوى غرفة النوم الصغيرة التى ما زال التلفاز فيها مفتوحًا على إحدى القنوات الإخبارية ..

اقترب من الغرفة فى حذر وهو يحاول السيطرة على صوت أنفاسه ، وعندما اقترب أكثر حتى أصبح فى مواجهة الباب ، بوغت بجسدها الصغير يعترض طريقه ، وبقدمها تركل المسدس من يده ، وبقدمها الأخرى تدور فى الهواء لتدفعه فى صدره ، فتراجع إلى الخلف قبل أن يسقط على الأرض ، وقبل أن يميز ملامحها الفرنسية وهى توجه إليه مسدسها من زاوية علوية ، وتقول فى نعومة :

ـ اعذرنى أيها الصقر العجوز ، لم أكن أعرف أنك عجوز إلى هذه الدرجة ..

غمغم (منصور) من موقعه على الأرض :

ـ (صوفى) ؟!

ـ أرسلتنى إليك مدموازيل (تشايمر) ، فهى حزينة للغاية مما بدر منك فى (مدريد) بعد أن هبطت من عندنا ..

اعتدل (منصور) مستندًا بمرفقه على ركبته ، وقال فى خفوت :

ـ لم أكن مسئولا عما حل بساقيها ، لم يكن أى منا مسئولا عما جرى لها أو لوالدها ..

قالت (صوفى) وهى تسدد المسدس إلى رأسه مباشرةً :

ـ للأسف ، هى غير مقتنعة بذلك ، ما لم تقدم لها برهانًا عكسيًّا !

نظر (منصور) نحوها ، وقال :

ـ تريد برهانًا إذن ..

هزت (صوفى) كتفيها :

ـ إن كان هناك واحد ..

فوجئت (صوفى) بنفسها ترتد إلى الوراء فى لمح البصر ، وفى اللحظة التالية أدركت أن (منصور) قد انتفض من جلسته ناحيتها ، موجهًا ضربة من كوعه إلى وجهها ، وفى اللحظة التالية فوجئت به خلفها ، يحيط ساعده بعنقها ، ويوجه بيده الأخرى المسدس الذى كانت تمسك به إلى رأسها ..

ـ ما رأيك الآن ؟! أما زلت عجوزًا إلى هذه الدرجة ؟!

قالها (منصور حرب) لاهثًا ، فغالبت (صوفى) حنقها وارتعاشة يديها إذ قالت :

ـ أعترف بأنى أخطأت التقدير ..

ـ مدموازيل (تشايمر) أيضًا مخطئة فى تقديرها ، فلا ذنب لنا فيما جرى لها .. البرهان أنه يمكن أن أقتلك الآن ، لكنى لن أفعل !

وألقى بها إلى الأمام حتى نهاية الصالة ، فعانقت الحائط بذراعيها ، قبل أن تستدير نحو فوهة المسدس الذى يوجهه إلى وجهها مباشرة ، وتقول :

ـ هل تعتقد أن هذا برهان قوى ؟!

قال (منصور) :

ـ سأعطيها أيضًا خيطًا تسير وراءه إن استطاعت إلى ذلك سبيلا ، هل ذاكرتك جيدة فى حفظ الأرقام ؟!

قالت (صوفى) :

ـ بالتأكيد ..

قال العميد (حرب) وهو يجذب صمام الأمان فى المسدس المصوب ناحيتها :

ـ احفظى الرقم التالى جيدًا ، واغربى عن وجهى بعدها على الفور .. وإلا ، أقسم أننى لن أتوانى لحظة عن إطلاق النار ، وإفساد وجهك الجميل ..

★ ★ ★

٥ ـ الدم ..

« فى مجال وظائف الأعضاء ، أعتقد أن الاستحثاث الإلكترونى للمخ يعد أعظم اكتشاف علمى على الإطلاق ، لدرجة أنى أخشى التصريح بما يمكن أن ينتج عنه ! »

د. روبرت فيلكس

شهادة أمام اللجنة الصحية بالكونجرس الأمريكى

★ ★ ★

ملامحه غربية غير متسقة ..

أنف كبير ، وفم صغير ، ووجه كأنه مثلث قاعدته لأعلى ..

القبعة الفرنسية والمعطف الصوفى الأسود الثقيل ، والحقيبة الصغيرة المدلاة من فوق الكتف الأيمن ..

اقترب من جهة الغابات القريبة .. وعبر نظارته السوداء ، تبدى القصر المنيف القائم عند الأفق ، فى دائرتين تشبهان ما يرتسم على شاشات الرادار ، أو مناظير بنادق القنص ، ورغم أن السماء كانت قد بدأت تلقى ببعض قطرات الماء فوق رأس (روب) ، إلا أنه

وبخطوات ثابتة تقدم نحو القصر ، حتى بلغ بوابته السوداء المغلقة ، وتوقف ناظرًا كأنه يدرس المكان ، حتى اقترب منه المغربى هاتفًا بالفرنسية :

ـ أنت هناك ، ماذا تريد ؟!

من خلال النظارة السوداء ، تركز وجه الرجل المغربى المقترب داخل الدائرتين ، ولم يمنحه (روب) جوابًا ..

وما حدث فى الثوانى التالية ، كان عجيبًا بحق ..

لقد مد (روب) يديه إلى قضيبين عاموديين من قضبان البوابة المعدنية السوداء ، وبقوة خارقة استطاع أن يثنيهما على الجانبين بحيث تتسع المساحة لمروره من بينهما !

صاح المغربى :

ـ رباه ، إنك ...

ولم يكمل عبارته ، ففى الثانية التالية ، انتهى كل شىء ..

أو بدأ !

★ ★ ★

فى بهو القصر ، هبط (عمر) وقد ارتدى ثيابه المهلهلة القديمة التى أتى بها فى الصباح ، ومن خلفه (رالف آندرسون) و(ميشيما) يهرولان ، يحاولان أن يفهما منه ما يجرى وما سيجرى ، ومن جهة غرفة المكتب ، خرج (تيودور أوبان) بسترته الرمادية الأنيقة ، ومن خلفه (دينا رامز) التى بدأ القلق يجول فى صدرها ويصعد عبر ملامحها ..

ـ نويتَ الرحيل إذن ؟!

قال (عمر) وهو يقف أمامهم مباشرة عبر البهو :

ـ سوف ألحق بـ (كارلا) قبل أن يضاف اسمها إلى قائمة الضحايا الأبرياء ..

ربت (تيودور) على كتفه ، وقال :

ـ لا بأس ، لقد منحتك عنوانها عن طيب خاطر ، ولن أمنعك من تنفيذ ما تراه صحيحًا ..

هتف (رالف آندرسون) من ورائه :

ـ مهلاً ، ونحن ؟! ماذا عنا ؟!

تبعه (ميشيما) :

ـ أجل ، لقد أتينا معه ، فهل يجب أن نرحل معه ؟!

التفت إليهما (تيودور) قائلاً ببسمة باهتة :

ـ ليفعل كل ما يحب ، فأنا لست ضد حرية الاختيار التى تجعل منا بشرًا كما يظن أخى الأكبر !

ألجم كرمه لسانيهما ، ووقف كل منهما ينظر للآخر ، فى حين استدار (تيودور) نحو (عمر) متابعًا :

ـ خذ الحذر حتى لا تكون أنت من يلقى حتفه قتلا فى نهاية هذه الحلقة .. إنها قواعد الدراما المقدسة ..

قال (عمر) فى لهجة محايدة :

ـ أخشى أن تكون مجنونًا يا مسيو (تيودور) !

ابتسم (تيودور) ، وقال :

ـ وإن أكن ، فقد اخترت جنونى بإرادتى على الأقل ؛ لذا فلن أقف أمام اختياراتك أبدًا ، لا أنت ، ولا أى إنسان آخر ..

ونظر كلاهما إلى (دينا) ، التى وقفت فى ثبات خلف (تيودور) ، كأنها تعلن فى صراحة أنها لن تنضم إلى (عمر) فى رحلته نحو المجهول ..

وفى الثانية التالية ، انتهى كل شىء ..

أو بدأ !

كراااااااش ..

تحطم زجاج النافذة القريبة المطل على الحديقة بالخارج ، حيث بدأت الأمطار تنهمر ، وعبر النافذة اندفع جسد إلى النافورة فى منتصف البهو ، ليخترق العامود الحاد فى منتصفها جذعه ، فيتوقف عن الحركة تمامًا ، بينما المكان يمتلئ ببقع الدم وشظايا الزجاج ..

وفى النظرة التالية تعرف عليه الجميع : إنه المغربى ، رجل (تيودور) ، الذى صاح :

ـ (مجيد) !

قال (عمر) وهو يرفع رأسه أمام الجميع بقلب جامد :

ـ لقد مات قبل أن يصل إلى هنا ، انظر .. رصاصة فى منتصف الجبهة !

ارتعد (رالف) و(ميشيما) وأمسك كل منهما بذراعى الآخر كأنه يحتمى به ، فى حين احتمت (دينا) تلقائيًا

بكتف (تيودور) ، الذى نظر نحو النافذة المهشمة صائحًا فى هلع :

ـ لكن .. من الذى ... ؟!

وبتر سؤاله ، ففى اللحظة التالية دوت طلقة رصاص أطاحت بقفل البوابة الخشبية المفضى إلى البهو ، وانفتح المصراعان عن مرأى الرجل الذى يصوب مدفعًا رشاشًا نحو الجميع ، بينما عيناه تختفيان خلف نظارة سوداء ..

ـ (روب) ؟!

هتف بها (عمر) ذاهلا ، وهو يتذكر لقاءهما فى عملية (كشمير) على الحدود ما بين (الهند) و(باكستان) ، وللحظة تجمد المشهد على هذا النحو ..

بدا من الواضح أن (روب) ينقل بصره ما بين (عمر) و(تيودور) فى ارتباك إذ يعجز عن التفرقة بينهما ، الأمر الذى جعل الأخير يهتف فى (رالف) و(ميشيما) :

ـ اهربا إلى الأعلى ، من الواضح أنه يريدنا نحن ..

امتثل الاثنان على الفور ، وتجاهلهما (روب) بالفعل معاودًا نقل بصره بين الاثنين عاجزًا عن الإتيان برد فعل مناسب ، فى حين قال (عمر) مغالبًا ذهوله :

ـ مهلاً ، يفترض به أن يكون فى صفنا !

احتمى الثلاثة بالنافورة التى تفصل بينهم وبين (روب) ، وتقدم منهم الأخير فى بطء مشهرًا المدفع الرشاش فى وجوههم ، بينما (تيودور) يهمس :

ـ تقصد صف المكتب (١٧) ؟! هل ما زالوا فى صفنا حقًا بعد كل ما عرفته ؟!

أدرك (عمر) مغزى ما يقوله (تيودور) ، قبل أن يسأله بنفس الهمس ، وبينهما (دينا) صامتة ، وأطرافها باردة كجثة :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!

ـ سنقاوم ..

وسارع بجذب أيدى الاثنين إلى الخلف ، ليهرولوا مختبئين خلف السلم القريب ، وقد بدا واضحًا أن (روب) قد فقد السيطرة على ارتباكه تمامًا ، فلاحقتهم رصاصات مدفعه الرشاش القاتلة ، التى حصدت فى طريقها كل شىء ..

اختبأ الثلاثة خلف السلالم الرخامية وهم يلهثون ، وتوقف سيل الرصاصات ، بينما واصل (روب) اقترابه من مكمنهم فى بطئه الآلى ..

همس (عمر) :

ـ هل قرروا فتح النيران علينا فى (القاهرة) أم ماذا ؟!

جاوبه (تيودور) همسًا :

ـ توقع الكثير والكثير من المفاجآت فى الحلقة الأخيرة يا صديقى ..

همست بهما (دينا) :

ـ وماذا سنفعل ؟!

جاوبها (تيودور) :

ـ سنهرب ..

نظرا إليه ففسر على الفور :

ـ سوف نلعب لعبة التشتيت التقليدية ، ننقسم إلى فريقين ، أنتما فريق وأنا فريق .. أنا سوف أجذب انتباهه إلى غرفة المكتب ، ومن هناك سأعرف كيف أهرب ،

وأنتما فى الوقت نفسه سوف تصعدان السلالم نحو سطح القصر ، حيث ستجدان طائرة مروحية جاهزة للإقلاع ، يمكنكما استقلالها نحو غابات (بولونيا) أو أى مكان آخر تريدانه داخل الحدود الفرنسية .. إنك تجيد قيادة الطائرات يا عزيزى ، فأنت خريج الثانوية الجوية كما أعلم ..

هز (عمر) رأسه موافقًا ، ثم إنه تساءل :

ـ وبعدها ؟!

ـ بعدها سوف نلتقى فى منزل عائلتى ، هاك العنوان ..

أعطاه قصاصة مطوية ، دسها (عمر) فى جيبه ، وعندما استرق (تيودور) النظر ، كان (روب) يواصل اقترابه البطىء من المخبأ ، فأخذ شهيقًا عميقًا ، قبل أن يلتفت نحوهما قائلاً :

ـ تماسكا ، لا تكونا من يموت فى آخر الحلقة أيها الشقيقان ..

ثم إنه هتف :

ـ الآن ..

وانطلق كالسهم قافزًا عبر البهو نحو غرفة المكتب القريبة ، تتابعه رصاصات (روب) التى انطلقت سيلاً ، محطمة اللوحات الجدارية ومخترقة الحوائط من خلفه ، وعندما اختفى وراء الباب تحرك (روب) نحوه فى سرعة هذه المرة ..

هتف (عمر) :

ـ الآن ..

ثم جذب يد (دينا) خلفه ليهرولا فوق السلالم ، فى نفس اللحظة التى أطلق فيها (روب) رصاصاته على مزلاج الباب ، فحطمه ، ودلف إلى الغرفة باحثًا بحركة رأسه عن أى أثر لمخلوق داخلها ، لكنه لم يجد هناك إلا الأحطاب التى تطقطق فى المدفأة ..

اقترب من الشرفة المطلة على الحديقة الصغيرة ، وعبر زجاجها الذى بللته قطرات المطر ، استطاع أن يلمح (تيودور) إذ يندس فى سيارته (المرسيدس) ويدير محركها ، فاندفع (روب) كالصاروخ نحو زجاج الشرفة واخترقه إلى الحديقة ، وبسرعة خارقة ـ كأن قدميه محركان نفاثان ـ ركض خلف السيارة التى اندفعت تخترق

البوابة السوداء ، ثم استوت بثبات على الطريق الإسفلتى الهابط إلى قلب (باريس) ..

من فوق سطح القصر ، جلس (عمر) فى مقعد قيادة المروحية وإلى جواره (دينا) ، يتابعان بعينيهما ما يجرى بالأسفل ، وقالت (دينا) فى وجل :

ـ رباه .. بهذه السرعة سوف يلحق به حتمًا ..

قال (عمر) وهو يضغط أزرارًا ويضع سماعتين فوق أذنيه :

ـ اسألينى أنا عن سرعته ..

دارت المروحة العلوية ، فى نفس اللحظة التى دوى فيها الرعد فى كبد السماء ، وانهمرت المياه مدرارًا ، فسألت (دينا) بمزيد من الوجل وهى تلمح ارتطام المطر بالواجهة الأمامية للطائرة :

ـ هل ستنجح فى التحليق بنا وسط هذا المناخ العاصف ؟!

قال (عمر) فى إصرار :

ـ يجب أن نلحق بـ (كارلا) ..

وبدأت المروحية ترتفع رويدًا رويدًا ، فى نفس اللحظة التى اقتربت فيها مروحية أخرى من بين الغيوم الرمادية البعيدة !

★ ★ ★

تقدم الأسمر الأنيق إلى صالون استقبال الضيوف المهمين فى قصر (عابدين) ، ومد يده بالمصافحة للرجل الفضى الشعر ، الغربى الملامح ، الذى نهض يصافحه كما تقتضى قواعد الدبلوماسية :

ـ أهلا بالمستر (ويليامز) ، سفير الولايات المتحدة الأمريكية العزيز لدينا ..

قال (ويليامز) وهو يعاود الجلوس :

ـ أهلا مستر (محمود) .. لقد طلبت مقابلة السيد رئيس الجمهورية شخصيًا على ما أذكر ..

جابه مبعوث رئاسة الجمهورية غطرسته ببسمة ودودة ، وهو يجلس فى مواجهته قائلاً :

ـ للأسف ، سيادة رئيس الجمهورية يعانى من وعكة صحية عابرة ، ويعتذر عن عدم استطاعته مقابلتك ،

لكن .. يسرنا أن نعلم إن كان وراء هذه الزيارة المفاجئة أسباب ما !

قال (ويليامز) :

ـ بالتأكيد هناك أسباب .. أسباب قوية ووجيهة .. فقد جئت خصيصًا لكى أبلغكم استياء السيد رئيس الولايات المتحدة البالغ تجاه الأفعال غير المسئولة التى بدرت من بعض الجهات لديكم هنا فى (مصر) ..

قال السيد (محمود) والبسمة المطبوعة على وجهه تتسع :

ـ لا يرضينا أبدًا استياء أصدقائنا وحلفائنا الإستراتيجيين ..

قال (ويليامز) وهو يهز رأسه :

ـ هذا ما ننتظره منكم دومًا .. رغم أن لديكم محتجز على درجة من الأهمية بالنسبة لنا ..

عقد السيد (محمود) حاجبيه :

ـ محتجز ؟! فى أى قضية تقصد ؟!

ـ دون اتهام محدد ..

ـ هذا ضد ...

قاطعه (ويليامز) :

ـ اسمه (روى باور) ، والجهة التى تحتجزه هى المكتب (١٧) !

صمت السيد (محمود) للحظة قبل أن يقول :

ـ لا أعتقد أن أمرًا كهذا قد تنامى إلى علم رياسة الجمهورية ، مستر (ويليامز) ..

قال (ويليامز) وهو يعتدل فى جلسته :

ـ لقد عرفنا بوسائلنا الخاصة ، ورغم أن الأمر لديكم على قدر من السرية .. إلا إننى أطالب رسميًا بتسليم رجلنا إلى السفارة الأمريكية ، حيث مكانه الطبيعي ..

عادت البسمة تزين وجه السيد (محمود) إذ قال :

ـ لك منى وعد بإطلاع سيادة الرئيس على الأمر فى أسرع وقت ، وسنرى ما يمكننا عمله ..

ـ هذه واحدة .. هناك أمر آخر ..

ـ كلى آذان يا سيدى ..

ـ هو أمر يتعلق بمقتل مستشارنا (جيمس بامفورد) فى (مدريد) ، وبالشريط الذى أذاعته إحدى المحطات الإخبارية متعلقًا بهروب أحد رجالكم من السفارة بعدها مباشرة .. لقد تنامى إلى علمنا أن رجلكم هذا يتبع نفس الهيئة الأمنية ، المكتب (١٧) ..

صمت (محمود) ولم يرد ، فقال الأمريكى على الفور وهو ينهض :

ـ كل ما أطلبه أن تتوفر على مكتبى أى معلومات بشأن رجلكم هذا ، وأن يتم تسليمه لنا إن كنتم تعرفون إليه سبيلا ، فمقتل مستشار أمريكى ليس بالأمر الهين كما تعلم بالتأكيد يا مستر (محمود) ..

مد (محمود) يده بالمصافحة :

ـ شرفتنا بالزيارة يا مستر (ويليامز) ..

صافحه (ويليامز) ، ومال على أذنه هامسًا :

ـ بالمناسبة ، أتمنى أن يتم النظر فى مطلبى هذين بالسرعة اللائقة ، حتى لا تفوح الروائح النووية من هذه المنطقة المسالمة ..

نظر إليه (محمود) بعينين اتسعتا ، فأضاف (ويليامز) غامزًا :

ـ أعنى المشروع (٥ ب ٣٠٠٠)(*) وما شابهه ..

ـ شرفتنا بالزيارة يا مستر (ويليامز) ..

قالها (محمود) ثانية ، وقد هاله ما بلغ الأمر من خطورة غير متوقعة !

★ ★ ★

ركض (روب) حتى استطاعت يداه أن تمسكا بمؤخرة السيارة (المرسيدس) المنطلقة بسرعة خارقة ، واندفع جسده فوقها بليونة عجيبة ، حتى استطاع أن يستوى فوق حقيبتها الخلفية ، و(تيودور) فى داخلها ينظر إلى ما يجرى عبر مرآة الزجاج الأمامى ، ويغمغم :

ـ أنت أكثر من رأيت من أهل الأرض همة يا عزيزى !

ثم إنه مال إلى الأمام قابضًا على المقود فى قوة :

ـ دعنا نرى كيف ستصمد أمام اختبار الأرض الموحلة إذن ..

(★) راجع العددين (٢) بعنوان (عملية العالم الرابع) و(١٢) بعنوان (عملية كشمير) ..

وبدأت السيارة تـأخذ مسارًا منحنيًا فوق الأرض الزلقة بفعل ماء المطر المنهمر ، وبفعل حركـة قبضتى (تيودور) على المقـود يمنة ويسرة فى جنـون ، و(روب) رغم هذا ثابت فوق السيارة كأنه قد تم لصقه بغراء قوى ..

لهث (تيودور) داخـل السـيارة ، عـائدًا بهـا إلـى المسار المستقيم :

ـ أتعبتنى .. و ... ما هذا ؟!

فى لحظة خاطفة اختفـى (روب) من مجال المرآة العاكسة على الزجاج الأمامى ، وانبعـج سـقف السـيارة لأسفل عندما هبط فوقـه بكل ثقلـه ، الأمر الـذى أفزع (تيودور) حتى الجنون :

ـ من أى عجينة شيطانية صُنعت يا صديقى ؟!

ومن الخارج كان المشهد مهيبًا : السيارة تشق طريقها إلى الأمام بسرعة خارقة ، وعلى سقفها يقعـى (روب) فى وضع الاستعداد لسباق الركض ، والأمطـار تنهـال على رأسه بقوة ، والرعد فى السماء يدوى مجددًا ..

ـ لقد اقتربنا من المدينة ، أعتقد أن النهاية قد اقتربت أيضًا !

قالها (تيودور) لنفسه وهـو يضغط دواسـة الوقـود أكثر ، لتجتاز السيارة الشارع الموازى لنهر (السين) ، والأمطار قد جعلت المشهد بلا متابعين تقريبًا ..

ثم انطلقت الرصاصـة من خـارج السـيارة ، لتخترق سقفها ، وتنغرس فى بطانة مقعد (تيودور) الجلدي .. بينما صاح الأخير فى رعب وهو ينظر إلى الثقب الـذى أحدثته فى السقف :

ـ كلا .. هذا كثير .. ولديك القدرة علـى إطلاق النـار فى هذا الوضع أيضًا ؟!

انطلقت رصاصـة أخـرى ، جرحـت يـد (تيـودور) اليسرى دون أن تخترقها ، فصرخ فى ألم وفقـد التحكم فى المقود الذى انحرف إلى اليمين بحدة ، فانحرفت السيارة بالتالى إلى متجر مغلق علـى طوار الشـارع ، لتقتحمـه السـيارة بمنتهـى العنـف ، محطمـة زجاجـه الأمـامى ، وانبثقت حقيبة الهواء فى وجه (تيودور) داخلها ، قبل أن يجاهد للخروج ، حتى استوى واقفًا على قدميه ..

نظر حوله ، فوجد نفسـه فـى متجـر للأثـاث ، وآلمـه جرح يده ، وعندما التفت وجده أمامه ..

(روب) ، مصوبًا مدفعه الرشاش إليه مباشرة ..

ابتسم (تيودور) ساخرًا وهو يقول :

ـ أنت لست بشريًا يا صديقى .. أليس كذلك ؟! للبشر قدرة محدودة على الاحتمال ، أما أنت فتملك قوة خارقة لا قبل لبشرى بها ..

تقدم منه (روب) ، والكلمات تدوى فى ذاكرته واضحة بصوت صقر عجوز ..

ـ « مهمتك يا عزيزى (روب) أن تحضر (عمر زهران) .. حيًّا .. أو .. ميتًا ! »

فى خارج المتجر كان المارة يتحلقون محتمين بمظلاتهم من مياه الأمطار ، ولابد أن بعضًا منهم قد تبرع بطلب الشرطة التى ستحضر بين ثانية وأخرى ..

يجب أن ينتهى كل شىء بسرعة ..

كان (تيودور) يتراجع ، وهو يقول :

ـ هل أصدروا لك الأوامر بقتل (عمر زهران) ؟! لكن .. صدق أو لا تصدق ، أنا لست هو .. أنا لست (عمر زهران) !

(روب) يتقدم ، ويشهر المدفع فى صدر (تيودور) الذى يواصل فى هستيريا :

ـ لهذا قصة طويلة سأقصها عليك فيما بعد ، فلم لا تتركنى الآن وبعدها ...

رفع (تيودور) عينيه ، ورأى انعكاس وجه (عمر زهران) على زجاج نظارة (روب) ، قبل أن يغمض عينيه مغمغمًا :

ـ أجل ، يبدو أننى أنا من سيموت فى هذه الحلقة .. لا بأس ، سوء تفاهم درامى له تبريره !

ثم إنه فتح عينيه ، ونظر مباشرة إلى (روب) :

ـ هيا يا صديقى ، ادفع بهذه الحلقة إلى نهايتها .. هيا ..

وكأنما امتثل (روب) لأمره ، فقد أطلق رصاصات مدفعه التى اخترقت صدره وألقته إلى الخلف ، ليتلوث كل شىء ، الجدار والأثاث والسترة الرمادية ونظارة (روب) السوداء والأرض الرخامية والسيارة القريبة ..

بالدم !

★ ★ ★

٦ـ المواجهة ..

« ما أقوله ، إنه لا يوجد في هذا العالم شخص جيد بما فيه الكفاية ، ليتحكم في حياة شخص آخر ، دون موافقة صريحة من هذا الآخر ! »

أبراهام لنكولن

★ ★ ★

بينما المروحية التي أقلت (عمر) و(دينا) تحلق بعيدًا وسط الأجواء المناخية السيئة ، حطت المروحية الأخرى المقتربة فوق سطح القصر ، وتباطأت حركة مروحتها العلوية بينما يخرج منها (هانز) ، متدثرًا بمعطف المطر الثقيل ، ومغطيًا رأسه بقبعة ذات أذنين تحجبان عنه البلل ..

وكأنه يعرف طريقه جيدًا ، سار (هانز) نحو السلم إلى الطابق الثاني ..

كان يسير بسرعة من يعرف هدفه جيدًا عندما توقف أمام أحد أبواب الحجرات ، ودفعه بقدمه ، لينفتح في عنف ، ويتبدى خلفه كل من (رالف آندرسون) والدكتور (ميشيما) ، متكومان في زاوية الحجرة ، والرعب قد بلغ بهما مبلغه ..

صرخا في هلع ، وأخرج (هانز) مسدسه نحوهما صائحًا :

ـ قفا ، وهلما معي ..

توقف الدكتور (رالف) عن الصراخ فجأة ، وهو ينظر إليه في ذهول بأطراف مرتعشة ، وانتفض واقفًا وهو يسأل في لهفة :

ـ (هانز) ؟! أنت (هانز) أليس كذلك ؟!

صاح فيه (هانز) في خشونة :

ـ اصمت .. واتبعني !

سأل (ميشيما) وهو ينهض حذرًا :

ـ هل تعرفه يا دكتور (رالف) ؟!

هتف (رالف) في غير تصديق :

ـ أعرفه ؟! وهل هذا سؤال ؟! بالطبع أعرفه .. هذا (هانز) .. اسمك (هانز) ، أليس كذلك ؟! (هانز آندرسون) .. (هانز رالف آندرسون) !

صاح فيه (هانز) بخشونة أكبر ، وهو يدفعه في كتفه :

ـ اصمت ، قلت لك اصمت !

أشار (ميشيما) نحو (هانز) وهو يهمس فى ذهول :

ـ أهذا .. ابنك ؟!

هتف (رالف) فى جذل :

ـ أجل ، لم أكن أتخيل أن ينتهى اليوم هذه النهاية السعيدة ..

ثم إنه وجه حديثه إلى (هانز) :

ـ ألا تعرفنى يا فتى ؟! أنا والدك .. الذى رباك قبل أن تأخذك المخابرات الأمريكية منى ، ويخضعونك لتجاربهم اللعينة رغمًا عنى وعنك ..

استمع إليه (هانز) فى جمود ، بينما (رالف) يتابع :

ـ لكن لا تخش شيئًا ، سأسعى لكشف مخططاتهم اللعينة بكل وسيلة ممكنة ، سـ ...

وصمت (رالف) بعدها تمامًا ، عندما زينت منتصف جبهته رصاصة من مسدس (هانز) !

خر (رالف) ساقطًا على الأرض بلا حراك ، بينما شهق (ميشيما) فزعًا ، وهو يجاهد للقول :

ـ رباه .. لا .. هذا كثير .. كثير .. لقد قتلته .. قتلت .. والدك ..

صوب (هانز) مسدسه نحوه وهو يقول :

ـ لتكف أنت الآخر ، وإلا ألحقتك به ..

صاح (ميشيما) فى رعب هائل :

ـ ليكن .. ليكن .. سأصمت تمامًا .. سأصمت !

جذبه (هانز) من ياقة قميصه ، وجرجره خلفه إلى الخارج ، عبر الدهاليز والسلالم ، حتى بللتهما مياه الأمطار فوق سطح القصر ، وألقاه داخل المروحية ، قبل أن يتخذ مقعد القيادة وتشرع مروحتها العلوية فى الدوران مجددًا ..

تحدث (هانز) فى جهاز اللاسلكى قائلاً :

ـ تمت المهمة بنجاح ، زائد واحد وناقص واحد ..

دوى الصوت فى جهاز اللاسلكى :

ـ ممتاز ، إلى الهدف المتفق عليه إذن ..

وقبل أن ترتفع المروحيـة ، كـان (ميشـيما) ينتفض من البرد والهلع إذ يقول :

ـ إلى أين سنذهب ؟!

حدجه (هانز) بنظرة بـاردة من عينيـه الزرقـاوين ، فأتبع بـ :

ـ إن كان هذا سرًا فلا أريد أن أعرف !

ـ ليس سرًا ..

قالها (هانز) ، ثم :

ـ هل تعرف (جوانتانامو) ؟!

أجاب (ميشيما) فى حماس :

ـ أجل ، إنها المنطقة الأمريكية من جزيرة (كوبـا) التى تعتقل فيها الإرهابيين رهن التحقيق و ...

ثم إنه اكتشف الحقيقة بغتة ، فصاح :

ـ يا إلهى ، هل ستعتقلنى فى (جوانتانامو) ؟!

لم يأته رد ، وساد الصمت إلا من هدير المروحة بين الأنواء ، فى اتجاه الطائرة نحو الغـرب ، حيث المصير المجهول ..

★ ★ ★

تجاوزت المروحية التى يقودها (عمر زهران) منطقـة غابات (بولونيا) إلى المدينة القديمة ، وأشار إلـى دير قديم نصفه متهدم بين المبانى الأثرية بالأسفل ، قائلاً :

ـ لا بد وأن هذا هو هدفنا ، الدير الذى نسيت اسمه !

ذكرته به (دينا) ناظرة إلى حيث يشير :

ـ (بوروايال دى شامب) !

ـ لا أعتقد أنى سأتذكره بسهولة فى المرة القادمة أيضًا ..

هبطت بهما المروحية أمام ساحة الديـر القديم مباشرة ، وترجلا من داخلها نحو بابه الخشبى المتداعـى ، الذى طرقه (عمر زهران) بكل قوته عدة مرات ، دون مجيب ..

قالت (دينا) ، والمطر يغرق عينيها الملونتين :

ـ لا يبدو أن هناك أحدًا فى الداخل ..

تجاهلها (عمر) وعاد يطرق الباب بكلتا قبضتيه حتى كادتا تنزعانه من مكانه ، وفى النهاية انفتح عن وجه تأكله التجاعيد أكلا ..

ـ من ؟!

الصوت أيضًا أكلته التجاعيد ..

ـ الدكتور (متشيل) ، أليس كذلك ؟!

نظر الرجل الطاعن فى السن إلى (عمر) الذى سأله بالفرنسية ، فهتف الرجل بنفس اللغة فى صوت مشروخ :

ـ أنت لست هو .. لست (تيودور) .. أنت النسخة الأصلية ، أليس كذلك ؟!

قال (عمر) والأمطار تغرقه :

ـ إننا هنا من أجل (كارلا) يا دكتور (متشيل) ..

شرد الرجل لوهلة :

ـ (كارلا) ؟! من (كارلا) ؟!

قالت (دينا) :

ـ التى تجرى عليها تجربة مسح الذاكرة !

ـ أجل ، تفضلا إنها فى الداخل ..

احتواهم الدير نصف المتهدم ، بالضوء الشحيح الصادر من مصابيح كهربية متسخة ، مثبتة فوق الجدران ، وضم (عمر) (دينا) تحت ذراعه ليحميها من البرد القارس فى الداخل ، خاصة وأنهما مبتلان تمامًا ..

ـ ها هى ذى ، من تسمونها (كارلا) ..

كانت مسجاة على سرير معدنى فى مركز القاعة الرئيسية للقداس ، كأنها ميتة فى تابوت مفتوح ، ولا معزين سوى هؤلاء الثلاثة ..

ـ وأريد أن أخبركم ..

على رأسها خوذى معدنية موصلة بجهاز فى الخلفية و ...

ـ إن التجربة قد تمت بنجاح ..

يبدو أنهما قد وصلا متأخرين !

ـ حتى الآن !

★ ★ ★

أعادت (صوفى) الرقم على مسمعى (مادلين تشايمر) للمرة الرابعة، والأخيرة تعقد حاجبيها فى جلستها الأبدية على الكرسى المتحرك، وتهرش بسبابتها فى ذقنها قائلة :

- فقط ؟! مجرد رقم بلا أى تفاصيل ؟!

هزت (صوفى) كتفيها وقالت :

- قال أيضًا إن إبقائى على قيد الحياة دليل آخر على صدق نيته، والحق أنه كان يمكن أن يتخلص منى بمنتهى السهولة، فلم أر فى مثل لياقة هذا الرجل فى مثل هذا السن ..

أشاحت (مادلين) بيدها فى ضيق، وقالت :

- لا وقت لغرامياتك مع الكهول هذه الآن، (صوفى) .. فكرى معى فى ماهية هذا الرقم الطويل ..

عادت (صوفى) تهز كتفيها :

- لا أعلم، أول ما فكرت فيه أنه ربما يكون رقم هاتف !

انعقد حاجبا (مادلين) :

- هاتف ؟! ولم ؟! ربما يكون رقمًا لأى شىء آخر أيضًا ..

قالت (صوفى) ملوحة بأصابعها :

- الصفران فى البداية ربما يكونان بداية الكود الخارجى لدولة ما، إننى لا أحفظ كل هذه الأكواد كما تعلمين !

فكرت (مادلين) للحظة، قبل أن تقول :

- فكرة وجيهة، لن نخسر شيئًا لو جربنا على أية حال ..

وأمسكت بهاتفها المحمول، لتعيد (صوفى) على مسامعها الرقم مرة خامسة، وبالفعل ..

- هناك جرس طويل متصل يرن عند الجانب الآخر ..

قالتها (مادلين) وقلبها يخفق فى انفعال، وهمست (صوفى) :

- الأمر أبسط مما كنا نتصور إذن ..

- هششش ..

أشارت (مادلين) بسبابتها لـ (صوفى) ، عندما رد صوت رصين عند الطرف الآخر :

ـ آلو ..

ـ مرحبًا ، هل يمكننى التحدث إلى السيدة (إيما) من فضلك ؟!

ارتجلت (مادلين) العبارة على الهواء ، ليجيئها الرد المتوقع من الجانب الآخر :

للأسف ، يبدو أنك قد طلبت رقمًا خطأ يا سيدتى ..

ـ رقم من هذا إذن ؟!

ـ الوحدة ٨٢٠٠ ، (تل أبيب) ..

أغلقت (مادلين) الهاتف على الفور وهى تشهق فى فزع ..

ـ (إسرائيل) ؟!

قالت (صوفى) فى لهجة تشع منها الخطورة :

ـ ماذا يعنى هذا ؟!

ـ قد يعنى الكثير يا عزيزتى ، الكثير !

صاحت (صوفى) فجأة ، وهى تشير إلى جهاز التلفاز المفتوح أمامهما دون صوت :

ـ غير معقول .. انظرى يا مدموازيل .. أليس هذا هو صديقك المصرى ؟!

نظرت (مادلين) ، وشهقت للمرة الثانية على التوالى ..

فعلى الشاشة ، كانت ملامح (عمر زهران) واضحة ، وهم يحملون جثته الغارقة فى الدماء من خارج متجر للأثاث يطل على نهر (السين) ..

مدت (مادلين) يدها نحو جهاز التحكم عن بعد ، وبدأ الصوت يتضح ..

ـ الحادث المروع الذى وقع قبل قليل ، والذى راح ضحيته شخص مازال البحث جار عن هويته فى سجلات الـ ...

★ ★ ★

قال السيد (محمود) ، مبعوث رياسة الجمهورية ، فى جلسته أمام اللواء (عفت حفنى) داخل مكتبه بالإدارة :

ـ جئت خصيصًا لكى أبلغك استياء السيد رئيس الجمهورية البالغ تجاه الأفعال غير المسئولة التى بدرت من جهتكم فى الآونة الأخيرة ..

ـ هون عليك يا سيد (محمود) ، مقدمك إلىّ هنا فى حد ذاته تشريف لنا ، كان يكفى أن تستدعينى فألبى نداءك حيثما تكون ..

ـ هذا الحديث المنمق لن يغير من خطورة الأمر شيئًا ..

ـ عم تتحدث يا سيدى ؟!

ـ عن احتجازكم لرهينة أمريكى هنا فى الإدارة دون الرجوع إلى الجهات السيادية ، الرهينة الذى يحمل اسم ...

ونظر فى ورقة يحملها :

ـ (روى باور) !

قال (عفت) فى تهكم خفى :

ـ هل أسبغ عليه الأمريكيون حمايتهم فجأة ؟!

قال (محمود) فى جفاء :

ـ لا تكثر فى الحديث ، يجب أن يكون الرهينة جاهزًا لكى تسلموه إلى السفارة الأمريكية بعد ساعتين على الأكثر ..

تنهد (عفت) ، قبل أن يقول :

ـ لا مشكلة ، إنه قراركم فى النهاية ..

ـ وهناك أمر آخر يتعلق برجل لديكم متورط فى حادث اغتيال المستشار الأمريكى (جيمس بامفورد) ..

ـ نعم ، إنه مختف من لحظتها فى مجاهل (أوروبا) ، ولا نعلم عنه شيئًا ..

ـ أرسل لى نسخة من ملفه بعد ساعة واحدة على الأكثر ..

ـ أمرك يا سيدى !

نهض (محمود) قائلاً :

ـ ويجدر بكم أن تهتموا بعملكم جيدًا حتى لا نضطر إلى إلغاء هذه الإدارة من الأصل ..

تساءل (عفت) وهو ينهض فى مواجهته :

ـ عم تتحدث بالتحديد ، سيد (محمود) ؟!

ـ أتحدث عن تسرب المعلومات .. الأمريكان يقتفون آثارنا النووية بدأب يا (عفت) ، وسفيرهم قبل ساعة واحدة كان يحدثنى عن الكود السرى (٥ ب ٣٠٠٠) !

صمت (عفت) محدقًا فى نقطة خلف ظهر (محمود) ، الذى قال :

ـ أعلم مدى حرج موقفك ، لكن إن لم تكونوا على مستوى المسئولية ، فلنبحث إذن عمن هو أهل لها !

تنحنح (عفت) قائلاً :

ـ عذرًا يا سيدى ، ليس السبب فى صمتى هو الحرج ، وإنما أمر يتعلق برجلنا المتورط الذى حدثتنى عنه قبل قليل ..

تساءل (محمود) فى غير فهم :

ـ ماذا عنه ؟!

أشار (عفت) إلى شاشة التلفزيون خلف ظهر (محمود) قائلاً :

ـ ها هو ذا !

استدار (محمود) لتصافح عينيه ملامح (عمر زهران) واضحة على الشاشة ، وهم يحملون جثته الغارقة فى الدماء من خارج متجر للأثاث يطل على نهر (السين) ..

مد (عفت) يده نحو جهاز التحكم عن بعد ، وبدأ الصوت يتضح ..

ـ الحادث المروع الذى وقع قبل قليل ، والذى راح ضحيته شخص مازال البحث جار عن هويته فى سجلات الـ ...

★ ★ ★

كان العميد (حرب) جالسًا على أحد المقاهى التى تقيه مياه الأمطار فى وسط العاصمة الفرنسية ، يحتسى قهوة (الاسبرسو) بغير استمتاع ، عندما لمح مشهد (عمر) على الشاشة ، غارقًا فى الدم ، فسقط فنجان قهوة مغرقًا الأرض ، بينما الصوت على الشاشة يتابع :

ـ الحادث المروع الذى وقع قبل قليل ، والذى راح ضحيته شخص مازال البحث جار عن هويته فى سجلات الـ ...

اندفع (منصور حرب) كالسهم إلى خارج المقهى، وفى أول كابينة هاتف وضع قطعة نقد معدنية، وضغط رقمًا طويلًا، حتى أتاه رنين طويل متصل عند الطرف الآخر ..

ـ آلو .. (روب) .. هل تسمعنى ؟! يجب أن نلتقى فى الحال ..

★ ★ ★

الصمت يرين على القاعة الرئيسية فى الدير المهجور، إلا من هدير الأمطار والرعود فى الخارج، وصوت المذيعة فى التلفاز الصغير الذى يعرض صورة مشوشة بالأبيض والأسود حيث (تيودور) غارقًا فى دمه، أمام عينى (عمر) و(دينا) الذاهلتين ..

ـ الحادث المروع الذى وقع قبل قليل، والذى راح ضحيته شخص مازال البحث جار عن هويته فى سجلات الـ ...

ـ مات !

غمغم بها (عمر) وعيناه تغيمان بالدمع ..

ـ قُتل !

غمغمت بها (دينا) ودمعة تفر من عينها بالفعل ..

أما الدكتور (متشيل) فكان غارقًا فى تدوين شىء ما بقلم ضوئى، على مقعده بجوار سرير (كارلا) الفاقدة الوعى ..

نهض (عمر) هاتفًا وهو يشعر بأن الدنيا أضيق عليه من سم الخياط، وصاح :

ـ هكذا نخسر كل شىء، وهم فقط الذين ينتصرون .. مرحى أيها الإنسان، طوبى لك فى مواجهة من يريدون سلب روحك .. طوبى لك ..

قالت (دينا) والدموع تهزمها وتفيض من عينيها لتغرق وجهها :

ـ تماسك يا (عمر) !

كأنها تحدث نفسها ..

كاد (عمر) يستمر فى هذياته، عندما دوى صوت ارتطام بالخارج، من ناحية الباب ..

نظر الدكتور (متشيل)، ونظر (عمر) و(دينا)، واستمر هدير الأمطار وصوت التلفزيون، حتى اقترب (عمر) من (متشيل) يسأله همسًا :

ـ ألديك سلاح للدفاع عن النفس يا دكتور ؟!

أخرج الدكتور (متشيل) من جيب معطفه مسدسًا ، ناوله إلى (عمر) بقوله :

ـ (تيودور) لم يكن يتركنى وحيدًا ..

تناول (عمر) المسدس متجاوزًا ألمه ، وبين المقاعد الخشبية المتراصة على التوازى فى قاعة القداس ، سار الهوينى حتى نهاية القاعة المفضية إلى الباب ، عندما لمح الظل الشبحى الذى يعرفه جيدًا ، يبرز أمامه فى الضوء الشحيح ..

صاح به (عمر) :

ـ أنت ؟!

ولم يرد الشبح ، وإنما ظل صامتًا يرمقه من خلف نظارته السوداء ..

لم يشعر (عمر) بنفسه إلا وهو ينهال بقبضته على وجه (روب) بكل ما فى جسده المنهك من قوة ، فتراجع الأخير نحو الحائط ، ليجهز عليه (عمر) ثانية

بكوعه ، ثم على رأسه بكعب مسدسه ، فخر (روب) متكومًا فوق الأرض ، بلا حراك ، وبلا مقاومة ..

هتف فيه (عمر) لاهثًا :

ـ أنت الذى قتلته ، أليس كذلك يا مندوب الجحيم ؟! هه ؟! أليس كذلك ؟!

لم يجبه (روب) ، وظل متكومًا فوق الأرض ، كأنه يتألم !

مد (عمر) ذراعه بالمسدس على امتدادها نحو رأس (روب) مباشرة ، وهو يقول :

ـ يجب أن تنال القصاص العادل .. العين بالعين .. والسن بالسن ..

وجذب إبرة المسدس :

ـ والبادى أظلم !

ـ توقف ..

دوى الهتاف الصارم من خلف كتفيه ، بالصوت الذى ضرب ذاكرته بمنتهى العنف ..

وبمنتهى القسوة ..

وعندما استدار ، كان (منصور حرب) يقف فى مواجهته تمامًا ، وفى نهاية القاعة ، كان الدكتور (متشيل) و (دينا) يتابعان من وقفتهما ما يجرى ، دون أن يفهم الأول أى شىء بطبيعة الحال ..

ـ أنت ؟!

شهق بها (عمر) بوجه شاحب ، بينما العميد (منصور حرب) يواصل تقدمه منه ، قائلاً فى صرامة :

ـ أنت ؟! ألم تعد قادرًا على النطق باسمى يا فتى ؟!

وجه (عمر) عينيه صوب الجدار ، قائلاً بكل ما يعتمل فى أعماقه من غليان :

ـ بل لم أعد قادرًا على النظر إلى وجهك لو أردت الحقيقة ..

هز (منصور) رأسه يمنة ويسرة قائلاً فى أسف :

ـ لست قادرًا على مواجهتى إذن ..

نظر إليه (عمر) صائحًا :

ـ تدهشنى لهجة المعلم الواثق التى تتحدث بها يا رجل .. أفق يرحمك الله .. من الذى يجدر به ألا يقدر على مواجهة من ؟! من يجدر به أن يشيح بوجهه حرجًا من الآخر ؟! هل أنا الذى خدعك طوال ثلاثين عامًا حتى أخجل من النظر فى عينيك ؟! هل أنا الذى صنعت لك عالمًا من الوهم لكى تعيش فيه دون أن تعلم أو تختار ؟! هل أنا الذى تحكمت فى حياتك وزرعت شريحة فى رأسك كى تبقى ملك يمينى طوال العمر ؟!

عقد (منصور) ساعديه أمام صدره ، وتنهد قائلاً :

ـ قل أكثر ، لديك الحق فى أن تتكلم حتى يوم الدين ، على أن تحفظ لى حق الرد بعدها ..

قال (عمر) فى سخرية مرة :

ـ سيدهشنى أن أجد لديك ردًا ..

قال (منصور) وهو يحاول التحديق فى عينى (عمر) ، دون أن يجدهما :

ـ لم أكن موافقًا على أى من هذا ، ولم ...

قاطعه (عمر) صائحًا :

ـ وماذا سيفيدنى تبريرك هذا الآن ؟! هى ليست صفعة على الوجه حتى تنتهى باعتذار وتربيتة ، إنها حياتى لو كنت تفهم معنى الكلمة .. حياتى يا سيادة العميد !

عاد (منصور) يتنهد ، ويحاول اجتياز حقل الألغام الواسع بينهما :

ـ اسمعنى لدقيقة واحدة على الأقل ، ربما لا تهتم لحديثى هذا الآن لكنك سوف تحتاج إلى التفكير فيه فيما بعد .. لقد كنت أعتبرك ابنًا حقيقيًا لى ، منذ خرجتَ من تلك التجربة اللعينة ، وتولتْ طليقتى السابقة تربيتك ، وأنا أحاول التجاوز عن التاريخ الأسود الملطخ بالعار الذى داست فيه أقدامنا سواء أنا أو أنت بغير إرادتنا .. لقد فكرت عشرات المرات فى الاستقالة بعد أن توقف المشروع فى أوائل التسعينيات ، وكنت أنت الحافز الوحيد الذى جعلنى أبقى ، وأستمر فى الخدمة ..

قال (عمر) هازًا رأسه :

ـ ربما فعلتَ هذا وفاء لذكرى صديقك ، أبى (فهمى زهران) الذى ...

قاطعه (منصور) :

ـ إنك لم تعرف هذه الحقيقة إذن ، لكن .. دعنى أخبرك بها حتى يكون لى فضل إخبارك بشىء لم تعرفه : أنت لست ابن (فهمى زهران) يا (عمر) !

صاح (عمر) :

ـ ماذا ؟! من أكون إذن ؟!

قال (منصور) :

ـ هو وحده كان يعرف ، وقد ضاع تاريخك العائلى تمامًا بموته فى حرب (لبنان) ..

ثم إن (منصور) أشار إلى (روب) المتكوم فوق الأرض بلا حراك :

ـ هذا هو ابن (فهمى زهران) الحقيقي !

تفجرت الدهشة فى وجه (عمر) وهو ينظر إلى حيث أشار (منصور) ، وتحجر لسانه بين فكيه ، حتى استطاع النطق أخيرًا :

ـ مـ .. مـ .. ما .. معـ .. نـ .. ى هـذا ؟!

قال (منصور) :

ـ هذا هو ضحية المشروع الأولى ، ابن (فهمى زهران) الذى زُرعت أول شريحة إلكترونية فى جمجمته بغرض السيطرة الكاملة عليه ، لكن الآثار الجانبية كانت عنيفة كما ترى .. فقدان القدرة على النطق ، فقدان القدرة على النوم ، فقدان القدرة على التواصل الإنسانى تمامًا إلا من خلال الشريحة الإلكترونية التى تحوله إلى كائن مطيع ، مجرد سلاح جبار فى يد من يستخدمه .. لقد صنعنا مسخًا ، نصف بشرى ونصف آلى يملك قدرات جسدية خارقة ويفتقد أغلب السمات البشرية التى تجعل من البشر بشرًا .. يمكن توصيل موجات دماغه بجهاز كمبيوتر من أجل التحدث والاتصال وغيرها من مهام الآلات .. وهكذا كان لابد من وجود مرحلة ثانية للمشروع ، كنت أنت من خاضها ، وقد حققت نجاحًا ملحوظًا كما ترى ، رغم جهلنا التام بالمصدر الذى جئت منه .. ويبدو أن للمشروع نيولا كنا نجهلها ، نجم عنها صنع شبيه مطابق لك هو من رأينا صورته على شاشة التلفاز قبل قليل ..

غمغم (عمر) مشيرًا إلى روب بمسدسه :

ـ هذا (عمر زهران) الحقيقى إذن ؟!

ـ أجل ..

قال (عمر) فى ألم :

ـ لقد كدت أطلق النار على نفسى !

قال (منصور) :

ـ الشريحة الإلكترونية المزروعة برأسها كان الغرض منها تعقبك فقط ، وعن طريقها استطاع (روب) الاسم الكودى الذى أطلقته عليه الإدارة عندما منحتك هويته تحديد موقعك الأول وتحديده مرة أخرى الآن ، وهو من اقتادنى إليك هنا ، بعد أن أمرته بألا يتعرض لك مهما فعلت ، حتى أستطيع أن أشرح لك كل شىء ..

قال (عمر) :

ـ بعد فوات الأوان ، بكل أسف ..

ثم إنه أشار إلى الممر المفضى إلى الخارج :

ـ اخرج من هنا على الفور ، لا أريد أن أراك !

زفر (منصور) ، وجاهد للتماسك أمام (عمر) ، ثم قال مغالبًا البراكين التى انفجرت فى أعماقه :

ـ سوف نتقابل مرة أخرى ، فى يوم ما ، ووقتها ربما تحدثنا وتفاهمنا أكثر .. حتى ذلك الوقت البعيد ، إلى اللقاء ..

واستدار مغادرًا على الفور ، ومن ورائه نهض (روب) ، وسار فى إثره ، بينما (عمر) يهتز فى وقفته كورقة فى مهب الريح ..

وعندما استدار ، ووجد (دينا) تقف وراءه مباشرة ، لم يشعر بنفسه إلا وهو يدفن رأسه فى صدرها ، ويبكي ..

يبكى بكل ما فى أعماقه من لوعة ، وألم ، ودموع ..

★ ★ ★

٧ـ التحـــوّل ..

« لا يعذب الإنسان شىء قدر رغبته فى إيجاد شخص ما بمنتهى السرعة ، ليضع بين يديه هبة الحرية التى ولد بها أصلاً .. »

ثيودور دوستويفسكى

★ ★ ★

ضحك (روى باور) ملء شدقيه ، وهو يرفع كأس النبيذ عاليًا فى مكتب السفير الأمريكى بـ (القاهرة) ، ويهتف فى جذل :

ـ فى صحة المصريين الحمقى يا سعادة السفير ..

ورشف من كأسه ، بينما (ويليامز) ينظر إليه بعينين فارغتين ، ويقول :

ـ هل تعرف السبب الذى جعلنا نطلب منهم تسليمك لنا يا مستر (باور) ؟!

قال (باور) وقد أدارت الخمر رأسه :

ـ بالطبع ، إننى رجلكم منذ نصف قرن تقريبًا ..

ـ تمامًا ، وهذا ما يجعل منك هدفًا مثاليًا لكل من يريد القبض على أعناقنا ومعرفة الكثير عنا ..

ـ لن يتكرر وقوعى فى قبضة أحد ، وحتى لو حدث .. يجب أن يكونوا أقل حماقة من المصريين يا عزيزى !

ـ من الخطأ أن نراهن كل مرة على حماقة الخصم ..

بهت (باور) :

ـ ماذا تعنى ؟!

قال (ويليامز) وهو ينهض من خلف مكتبه :

ـ أعنى ببساطة أننا نبحث الآن عن وسائل أكثر فعالية لتفادى الإيقاع برجالنا الثقات ..

هز (باور) رأسه فى تفهم ، وجرع من كأسه متابعًا السفير الذى توجه إلى باب الخروج من مكتبه ، قبل أن يقول :

ـ إلى أين يا سعادة السفير ؟!

قال (ويليامز) :

ـ دورة المياه ، وسأعود على الفور ..

غادر (ويليامز) الغرفة ، وفى الخارج كان ينتظره رجل بارز الفكين ، أزرق العينين ، جامد الملامح ..

تجاوزه (ويليامز) كأنه لا يعرفه ، وعلى الفور دلف الرجل إلى مكتبه ، ولو كنت واقفًا بجوار الباب ، لأمكنك قطعًا سماع الأزيز المكتوم وصيحة الألم وارتطام جسم ضخم بالأرض ، أما لو كنت بعيدًا ، مثل السيد (ويليامز) ، الذى يصفر وهو يجذب سيفون المياه ، فلن تسمع شيئًا على الإطلاق !

★ ★ ★

انهمك اللواء (عفت حفنى) فى جمع أغراضه داخل صندوق كبير ، داخل مكتبه بالإدارة ، عندما ارتفعت الطرقات فوق الباب ، ودخل إثرها على الفور رجل بملامح صقر عجوز ..

ـ (منصور) ؟! متى عدت يا رجل ؟!

هتف بها (عفت) ، فقال (منصور) :

ـ البارحة يا سيادة اللواء ..

قال (عفت) والحزن يطوف بملامحه :

ـ خل عنك الألقاب يا عزيزى .. لقد انتهى كل شىء ، وصدر قرار جمهورى بإلغاء الإدارة تمامًا ..

قال (منصور) وهو يجلس فوق المقعد الذى اعتاد الجلوس فوقه دائمًا :

ـ سمعت النبأ ، ولم أحزن إلى هذه الدرجة ..

ـ ولا أنا ، لا يحزننى إلغاء الإدارة بقدر حزنى للمدى الذى تأخر فيه إصدار قرار كهذا ..

ـ زمن طويل بالفعل ..

قالها (منصور) وهو يجاهد للسيطرة على نفسه ، فنظر إليه (عفت) قائلًا فى إشفاق :

ـ وهل كل شىء على ما يرام ؟!

أجاب (منصور) فى صراحة :

ـ إلى حد ما .. (دينا رامز) اتخذت هوية جديدة وانتظمت فى الدراسة فى إحدى جامعات (برلين) ، و(كارلا روبرتس) تخوض جلسات علاج عقلى فى (نيويورك) بعد تجربة مسح الذاكرة فى (باريس) ..

ـ و(عمر) ؟!

ـ لم يعد هذا اسمه ، لقد أصبح الآن يحمل اسم (تيودور أوبان) !

قال (عفت) :

ـ لا بأس .. لا بأس على الإطلاق .. لقد تخيلت النهاية أكثر مأساوية بكثير ..

ثم وجه سؤاله للعميد (حرب) :

ـ وماذا عنك ؟!

أجابه :

ـ لدى خطة تقاعد مريحة ، إن كنت تحب مشاركتى فيها ..

قال (عفت) باسمًا :

ـ كلا ، لدى أنا الآخر خططى التى لا أظنها تناسبك إطلاقًا ..

وتبادلا نظرات تموج بالغموض ..

★ ★ ★

ـ « بعدها سوف نلتقى فى منزل عائلتى ، هاك العنوان .. »

أخرج (عمر زهران) الوريقة المطوية من داخل جيب سترته ، وتأكد أن هذا هو العنوان الصحيح فى مدينة (مارسيليا) ، قبل أن يعبر الشارع الخالى فى ذلك الوقت المبكر من النهار ، ويطرق باب المنزل ذى الطابقين المطل على البحر مباشرة ..

فتحت له الباب فرنسية حسناء ترتدى السواد ، وتجمدت ناظرة إليه بوجه شاحب ..

ـ صباح الخير ..

نطق بها (عمر) بالفرنسية ، فحاولت المرأة أن تبتسم ، وقالت :

ـ صباح الخير .. أنت هو ، أليس كذلك ؟!

حار (عمر) فى إجابة سؤالها الغامض ، فأوضحت :

ـ (تيودور) حدثنى عنك كثيرًا ، أنت شبيهه المصرى بالتأكيد ..

هز (عمر) رأسه بالإيجاب :

ـ نعم .. أنا هو !

« هذه زوجتى (إيف) .. بالعربية هى (حواء) .. »

ـ تفضل !

فى الداخل هرع إليه الطفلان اللذان يشبهانه ، هاتفين بالفرنسية :

ـ أبيييييييييي ..

« وهذه ابنتى الكبرى (شارلوت) .. أربع سنوات .. وابنى الأصغر (أبراهام) .. سنتان ونصف .. »

حملهما كأب حقيقى ، فابتسمت الأم وجاهدت دموعها ، وبعد أن سقط بهما أرضًا ، وقفا بجواره لتقول (شارلوت) :

ـ هيا نشاهد شيئًا على التلفاز سويًا يا أبى ..

ـ هيا ، لنفعل ..

قالها (عمر) فى حماس وقد نسى نفسه وعاد إلى طفولته ، فأشار (أبراهام) إلى المكتبة القائمة فى صدر الصالة ، وهتف :

ـ حلقة جديدة من (رجل الليل) !

نظر (عمر) إلى حيث يشير الطفل ، وابتسم فى حميمية ..

لم تكن صوره ـ بالأحرى صور (تيودور) معهما ومع (إيف) ، المؤطرة على رفوف المكتبة وجدران الصالة ، والتى رأى بعضها فى ألبوم الصور ـ هى التى جعلته يبتسم ..

إنما كان ما شاهده على الرفوف من مجموعة كاملة لكل كتب ومجلات وشرائط فيديو وأسطوانات وألعاب (رجل الليل) ..

اللعبة والمسلسل اللذان ربما قاداه عبر هذا الطريق الوعر الطويل إلى هنا ، مع عائلته الجديدة / القديمة ..

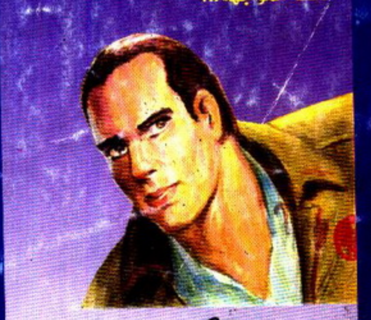
لكن ترى .. هل انتهى هذا الطريق حقًا ؟!

★ ★ ★

[تمت الأجزاء الثلاثة بحمد الله]

عملية مواجهة

في هذه المعركة بالذات لا يوجد منتصر أو مهزوم .. كل الخطوط لا تزال مفتوحة : (عمر زهران) في باريس يقابل نسخة منه ، (منصور حرب) هناك يطارده باستماتة ، (روي باور) محتجز في (القاهرة) يحاول الهرب ، (مادلين تشايمر) حققت انتقامها الواهم ، مع دخول طرف جديد قوي في مسار الأحداث التصاعدي .. الجميع يحاولون التماسك في مهب العاصفة ، حتى تحين تلك اللحظة الحتمية .. لحظة المواجهة ..!





د. محمد سليمان عبد المالك

المكتب 17
إدارة المهام الخاصة

★★★★

سلسلة روايات عصرية للشباب حافلة بالمغامرة والإثارة والتشويق



الرواية القادمة
تأثير الدومينو

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن في مصر ٣٠٠ قرشاً
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم